

## البَابُ الثَّانِي

obeykandl.com

## الفصل الأول

اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم

مخبره:

سنعرض في هذا الباب لكثير من الصور التي بدا فيها رأيه صلى الله عليه وسلم ، وهي كثيرة متنوعة . فمرة بدا الرأي في صورة الظن ، وأخرى في صورة العلم أو الجزم ، وثالثة في صورة التمني ، ورابعة في صورة الأمر أو الدعاء . . . الخ .

وسيعلم القارئ من عرضها :

أولاً :

- ( ١ ) إن كان قد أذن له صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد ، أم كان لا يصدر عنه فعل ولا قول مثلاً إلا بإذن خاص من الله ؟
- ( ٢ ) وإن كان له أن يجتهد فهل كانت دائرة اجتهاده أمور الدنيا الصرفة ، أم معها أمور الدين كذلك ؟ .

(٣) وإن كان له أن يجتهد في الكل فهل وقع منه صلى الله عليه وسلم اجتهاد في أبواب العبادات كالصلاة ، والحج ، والصيام ... وما يتصل بذلك من دعاء واستغفار وغيرهما ؟ .

(٤) ثم هل وقع منه صلى الله عليه وسلم اجتهاد في الأمور الغيبية أيضاً ، أم كان اجتهاده قاصراً على غير الغيبيات ؟ .  
وثانياً :

(١) إن ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فهل كان يصيب دائماً ، أم لا ؟ .

(٢) وإن كان الثاني فهل كان يقع منه صلى الله عليه وسلم غير الصواب حتى في الأمور الدينية ، أم كان ذلك في أمور الدنيا فقط ؟ .  
وثالثاً :

(١) إن كان يقع منه غير الصواب في الجميع فهل يجب أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم فوراً في كل أنواع اجتهاده ، أم يجوز أن يتراخى بيان الصواب ؟ .

(٢) وإن كان الثاني فهل ذلك يكون عاماً في أمور الدين والدنيا ، أم في أمور الدنيا فقط ؟ أما في أمور الدين فيجب بيان الصواب فوراً ؟ .

ورابعاً :

(١) إذا علمنا أن رؤيا الأنبياء وحى فهل يتناول اجتهاده صلى الله عليه وسلم تعبيرها ، فيصيب تارة دون أخرى ؟ .

وخامساً :

(١) إن قلنا : إنه كان يجتهد في كل شيء فهل امتد اجتهاده صلى الله عليه وسلم إلى فهم القرآن ، أم كان ذلك بالوحى فقط ، أم منه ما كان بالوحى ومنه ما كان بالاجتهاد ؟ .

(٢) وإن كان منه ما كان باجتهاد فهل يجوز عليه فيه غير الصواب أيضاً ؟ .

(٣) وإن كان يجوز فهل يوحى إليه بوجه الصواب فوراً ، أم يجوز

التراخي لوقت الحاجة ؟ .

وسادساً :

(١) هل سكوته على ما يقع بحضوره صلى الله عليه وسلم يكون حجة

على صحة ما وقع ؟ .

## ما برأه اجتراهده فى صورة « الظم » :

١ — عرض صلى الله عليه وسلم لمن غضب عليهم الله من بنى إسرائيل فمسخهم حيوانات ، وظن أن من مسخ منهم يجوز أن ينسل ، وأن الفأر والضب كلاهما من نسل المسوخ . وآية ذلك أن الفأر إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربها وإذا وضع لها ألبان الشاء شربتها - وتفضيل الثانية على الأولى كان من عادات بنى إسرائيل - وكذلك توقف فى إباحة أكل الضب والنهى عنه .

( ١ ) يروى فى ذلك البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يدري ما فعلت . وإنى لا أراها إلا الفأر : إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت <sup>(١)</sup> » .

---

[ ١ ] فى مسلم عن أبى هريرة مثل هذه الرواية . ونصها : فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يدري ما فعلت ، ولا أراها إلا الفأر . ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته .

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة أيضاً بلفظ ، قال صلى الله عليه وسلم :  
« العار مسنخ . وآية ذلك أنه يوضع بين يديها لبن الغنم فتشربه ، ويوضع  
بين يديها لبن الإبل فلا تذوقه » .

( ب ) ويروى مسلم عن جابر بن عبد الله ، قال : « أتى النبي صلى الله  
عليه وسلم بضب فأبى أن يأكل منه ، وقال : لا أدري ! لعله من القرون  
التي مسخت » .

ويروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري أن أعرابياً أتى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فقال : إني في غائطٍ مضبّة ، وإنه عامة طعام أهلي . قال : فلم  
يجبه . فقلنا : عاوده ! ، فعاوده فلم يجبه . . . ثلاثاً . ثم ناداه صلى الله عليه وسلم  
في الثالثة فقال : « يا أعرابي ! إن الله لعن - أو غضب - على سبط من بني  
إسرائيل فمسخهم دواب يدبون في الأرض . فلا أدري ؟ لعل هذا منها . فلست  
آكلها ، ولا أنهي عنها » .

٢ - ثم يوحى إليه الله تعالى بأن المسوخ لا نسل له . ولذا يعبر صلى الله  
عليه وسلم عما أوحى إليه في صورة الجزم والقطع .

يروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قالت أم حبيبة  
- زوج النبي صلى الله عليه وسلم - ذُكِرَتْ عند النبي صلى الله عليه وسلم :

القرود من مسخ . فقال : « إن الله لم يجعل لمسخ نسلا ولا عقباً ، وقد كانت القرود والخنازير قبل ذلك » .

ويروى أبو داود بسنده عن ابن مسعود أيضاً أنه قال : سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القرود والخنازير ، أهي من نسل اليهود ؟ فقال : « لا . إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسل . ولكن هذا خلق كان . فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم » .

ويقول ابن كثير في تفسيره - نقلاً عن ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس - : إن الذين جعلوا قروداً قَوَاقِباً<sup>(١)</sup> ثم هلكوا . ما كان لمسوخ نسل ! . ويذكر أيضاً - نقلاً عن الضحاك ، عن ابن عباس - : بعد جعلهم قروداً لم يحيوا إلا ثلاثة أيام ، ثم قال : لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ، ولم ينسل .

والحافظ بن حجر في توفيقه بين هذين الضربين من الأحاديث لم يخرج عما ذكرناه من أنه أبدى رأيه أولاً عن اجتهادٍ منه ثم كان وحى الله له بعد ذلك . ولذلك يقول : قال الجمهور : إنه صلى الله عليه وسلم قال ما قال أولاً قبل أن

[١] القواق : الزمن اليسير ، قدر ما بين حلقى الناقة .

يوحى إليه بحقيقة الأمر في ذلك . ولذا لم يأت الجزم عنه بشيء من ذلك ،  
بخلاف النقي فإنه جزم به ، كما في حديث ابن مسعود المتقدم .

لكن أكان الوحي بحقيقة الأمر في ذلك على الفور أم على التراخي ؟ .  
يصعب علينا أن نحدد الفترة الزمنية بين الأمرين ، بين إبداء الرأي والوحي

ما برأ من اجتهاده في صورة « القطع » :

١ — سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصائر أولاد المشركين  
فحكم على سبيل القطع بأنهم تبع لأبائهم .

يروى ابن كثير في تفسيره عن الحافظ أبي يعلى عن البراء بن عازب أنه  
قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين ، فقال : « هم  
مع آبائهم » .

ويروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن عائشة أنها قالت : سألت رسول  
الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين ، فقال : « هم تبع لأبائهم » .  
فقلت : يا رسول الله بلا أعمال ؟ . فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وروى أبو داود عن الشعبي — بلفظ عام — أنه قال : قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : « الوائدة والمؤودة في النار » .

٢ — ولكنه عليه الصلاة والسلام في روايات أخرى تحدث عن مصيرهم  
بما يمد مقابلا للحكم السابق :

(١) فمرة وكل مصائرهم إلى علم الله . يروى مسلم عن عائشة رضی الله  
عنها أنها قالت : دعى رسول الله إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت :  
يا رسول الله ! طوبى لهذا . عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءا ، ولم  
يدركه . قال : « أو غير ذلك يا عائشة ؟ . إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها  
وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » .

(ب) ومرة يحكم عليهم بأنهم على الفطرة والقابلية لأن يتجه بهم ذات  
اليمين أو ذات اليسار .

يروى مسلم عن أبي هريرة أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « ليس  
من مولود يولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه » .

ويروى أحمد والنسائي عن الأسود بن سريع من بني سعد أنه قال :  
غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات ، فتناول القوم الذرية  
بعد ما قتلوا المقاتلة . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم  
قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ » . فقال رجل : يا رسول الله ! أليسوا  
أبناء المشركين ؟ . فقال : « إن خياركم أبناء المشركين . ألا إنها ليست نسمة  
تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها » .

ويروى الحافظ أبو بكر اليرقاني في كتابه المستخرج على البخاري عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة » .  
فناداه الناس يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ . فقال : « وأولاد المشركين » .  
( ح ) ومرة يميل بهم إلى أنهم حنفاء مسلمون .

يروى مسلم عن عياض بن حماد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «  
عن الله عز وجل أنه قال : « إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين » .  
( د ) وأخرى يحكم عليهم بأنهم من أهل الجنة .

يروى الطبراني عن سمرة أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
عن أطفال المشركين ، فقال : « هم خدم أهل الجنة » .

ويروى أحمد عن حنساء بنت معاوية من بني صريح أنها قالت . حدثني  
عمي قال : قلت يا رسول الله ! من في الجنة ؟ . قال : « النبي في الجنة ، والشهيد  
في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوثيد في الجنة » .

فمجموع هذه الأحاديث يمتطى أنه أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام  
في أولاد المشركين ومصيرهم قولان : قول يلحقهم بأبائهم ، وآخر يبعدهم عن  
هذه التبعية لأبائهم . وأحد هذين القولين صدر من غير شك على سبيل  
الاجتهاد منه ، والثاني عد تصويبا له من الله . أما أيهما كان اجتهاديا وأيها  
( ه )

كان تصويبا ، فالعلماء على أن الرأي المختار منهما عدم إلحاق أبناء المشركين بأبائهم مستندين إلى الآية الكريمة : [ وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ] .

والبخارى رضى الله عنه عندما تعرض لأحاديث هذا الباب ذكرها كما يأتى :

ذكر أولا حديث ابن عباس ، وهو أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : « الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين » ،

وثنى بحديث أبي هريرة ، وهو أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذرارى المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ،

وثالث بحديث أبي هريرة ، وهو أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ،

وذكر أخيراً حديث سمرة بن جندب ، وهو أنه قال فى كلام طويل : قال صلى الله عليه وسلم : « ذات يوم أتانى الليلة آتيان فانطلقت معهما . . .

إلى أن قال : فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان - وفى رواية : وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل

لأ أكاد أرى رأسه طولاً فى السماء ، وإذا حول الرجل ولدان مارأيت قط أكثر منهم - فقلت : ما هذا ، وما هؤلاء ؟ : فقالا : أما الرجل فأبراهيم عليه

الصلاة والسلام ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة . . .

قال سمرة : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم وأولاد المشركين » .

والحافظ بن حجر في شرحه لهذه الأحاديث يعلل ترتيب البخارى لها على هذا النحو بقوله :

رتب المصنف أحاديث الباب ترتيباً يشير إلى المذهب المختار من أن أولاد المشركين في الجنة . فانه صدره بالحديث الدال على التوقف ، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة ، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك فانه قال في سياقه : « نعم وأولاد المشركين » .

ونقل عن النووى سبب اختيار هذا المذهب فيما يحكيه عنه هنا بقوله :  
والمذهب الصحيح المختار أنهم في الجنة . وهذا ما ذهب إليه المحققون ،  
لقوله تعالى : [ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ] . وإذا كان الله لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أولى .

وذكر النووى أيضاً في شرحه حديث عائشة الذى رواه مسلم متعلقاً  
بجنازة الصبي من الأنصار : أن من يعتد به من علماء المسلمين أجمع على أن  
من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة ، لأنه ليس مكلفاً . كما ذكر

أن بعض من يعتد به أيضاً توقف في هذا الحكم ، لحديث عائشة هذا . ثم روى ما أجاب به العلماء توفيقاً بين الرأيين من أنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك - الحديث المروي عن عائشة - قبل أن يعلمه الله أن أطفال المسلمين في الجنة . فلما علم قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحلم إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم »<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

١ - وفي حادثة أخرى يروي أحمد ، بأسناد على شرط البخاري ، عن عائشة أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية : وقاك الله عذاب القبر ! . فقلت : يا رسول الله اهل للقبر عذاب ؟ قال : « كذبت يهود : لا عذاب دون يوم القيامة »<sup>(٢)</sup> .

فنفى صلى الله عليه وسلم العذاب دون يوم القيامة على وجه القطع .

٢ - ولكنه في رواية أخرى يثبته :

[١] رواه البخاري عن أنس بن مالك .

[٢] في رواية البخاري عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن يهودية جاءت تسألها ، وقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر . فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيئذ الناس في قبورهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أنا عائد بالله من ذلك » .

( أ ) يروى مسلم عن عائشة أنها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي امرأة من اليهود ، وهى تقول : هل شعرت أنكم تفتنون فى القبور ؟ . قالت : فارتاع صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إنما تفتن يهود » . قالت عائشة : فلبثنا ليلالى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « هل شعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور ؟ » . قالت عائشة : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يستعيز من عذاب القبر .

( ب ) ويروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : أنبت عائشة حين خَسَفَتُ الشمس فإذا الناس قيام يصلون ، وإذا هى قائمة تصلى ... إلى أن قالت : فلما انصرف صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما من شىء كنت لم أره إلا وقد رأيت فى مقامى هذا ، حتى الجنة والنار . ولقد أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور مثل - أو قريباً من - (١) فتنة الدجال » .

والحافظ بن حجر يقرر اختلاف هذه الروايات ، ويختار فى تعليقه ما قرره النووى هنا من أنه صلى الله عليه وسلم حينما نفى عذاب القبر كان ذلك قبل

[١] الشك ممن روى عن أسماء .

أن يُعلمه الله ، ولما نزل الوحي أقر بأن هناك عذاباً للقبر . .

ويستطرد الحافظ فيقول : إن في حديث الكسوف ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القبر وهو بالمدينة وفي أواخر الأمر ، لأن تاريخ صلاة الكسوف يدل على ذلك . لأنها كانت يوم مات ولده إبراهيم عليه السلام . وموت إبراهيم كان في السنة العاشرة .

ويستمر فيذكر : أن الذي نفاه صلى الله عليه وسلم أولاً إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحّدين ، ثم أعلمه الله بأن ذلك قد يقع على من يشاء منهم ، فجزم به ، وحذر منه ، وبالغ في الاستعاذة منه تعليماً لأُمَّته صلى الله عليه وسلم .

وهنا في هذه المسألة نجد اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم صوّب بوحى من الله . لكن الفترة التي وقعت بين الرأي وتصويبه لا تحدد إلا إذا علم على وجه الدقة : من هي اليهودية التي كانت تتردد على عائشة رضی الله عنها وعلم وقت هذا التردد .

ما برأعه اجتهاده في صورة التمني :

- ١ - أحب صلى الله عليه وسلم أن يكون البيت الحرام قبلته في الصلاة ، بعد ما مكث متجهاً فيها إلى بيت المقدس أكثر من ستة عشر شهراً .
- ٢ - فأجابه الله إلى ما طلب ، وصرف قبلته إلى الكعبة بما أنزله في الآية الكريمة : [ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ] .

يروى البخارى عن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يمجبه أن تكون قبلته قبل البيت - وفي رواية : كان يحب أن يوجه إلى الكعبة - فأنزل الله تعالى : [ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ] فتوجه إلى نحو الكعبة<sup>(١)</sup> .

ويحدد ابن كثير في تاريخه - نقلاً عن ابن عباس وابن مسعود - أن القبلة صرفت في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه

---

[١] وزوى ابن ماجه من طريق أبي بكر بن عياش ، قال : صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة إلى الكعبة .

وسلم المدنية ، ويزيد تحديداً بقوله : إن الجمهور الأعظم على أنها صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة .

ويحمل النقل عن ابن عباس - في رواية أحمد عنه - في : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى وهو بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما هاجر إلى المدينة ولم يمكن الجمع بينهما صلى إلى بيت المقدس . ويعلل رغبة الرسول في التوجه إلى الكعبة في الصلاة بأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وقد جاء داعياً إلى احياء ملته وتجديد دعوته . والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعاً ، وهم نواة الدين وأساس الدعوة .

وهنا تراخى الوحي في إجابة الرسول إلى ما أحبه ، فاجتهد عليه السلام أولاً وبدا اجتهاده في صورة رغبة وأمنية فحققها له الله سبحانه وتعالى ، وبذلك أصبح ما رآه بالاجتهاد مشروعاً مقراً عليه من ربه

\*\*\*

وفي جانب آخر أثناء دعوته صلى الله عليه وسلم للإسلام كان بعض زعماء الكفار يحاول في صور شتى أن يضع العراقيل في سبيل انتشار دعوته ، مرة بالاستخفاف منه واتهامه بما لا يليق بداعٍ إلى الحق ، وأخرى بتقديم طلبات مبدئين ضرورة إجابتها حتى يكون ذلك تمهيداً لتصديقه والسير في اتجاهه . شأنهم

في ذلك شأن أى فريق معارض ، معاند في معارضته . والرسول عليه السلام كانت تغلب عليه طبيعته البشرية في بعض الأحيان إزاء ذلك ، مرة يتأثر في دخيلة نفسه بما يهتمونه به ، وأخرى يتمنى نفسياً أن يأتى الله على يديه بما يحقق بعض ما طلبوا تحقيقه . لكن الله جلت قدرته وعزته إرادته هو الكفيل بأن ينتصر رسوله في دعوته إلى الحق ، ولذا كان يتكفله بتقوية عزمه وطمانينته على مستقبل دعوته حين تستحكم الأزمة ، أو تشتد الرغبة في مجاراتهم .

١ - يحكى الله سبحانه وتعالى بمثل قوله : [ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكًا ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًَا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ، وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ]<sup>(١)</sup> . بعض ما كان يطلبه الكفار من رسوله الكريم ويتمنى أن يجيبه الله إليه .

٢ - لكن لأمرٍ يرتبط بمصلحة الدعوة ، وبحكمة الألوهية لم يجبه الله في بعض الأحيان إلى ما تمنى ، وهو العليم الخبير . يقول تعالى : [ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا ، حَتَّى  
 آتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ  
 الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ  
 تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٌ ، وَلَوْ  
 شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
 الْجَاهِلِينَ [ (١) ] .

والمفسرون يقولون في معنى هذه الآيات (٢) : إن زعماء الكفار كانوا

[ ١ ] آيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .

[ ٢ ] ويقول صاحب المنار : والمختار في المراد بما يحزنه مما يقولون انه هو ما تقدم أول  
 السورة من قولهم : [ لولا أنزل عليه ملك ... الخ ] وما في معناه . والكلام في طائفة  
 الجاحدين كبراً وعناداً كأبي جهل ، والأخنس بن شريق الثقفي . وهؤلاء لم يكونوا يمتقدون  
 كذبه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يحاولون صرف الناس عنه تارة بقولهم : ساحر  
 وما مثله ، وتارة : باقتراح آيات مخصوصة من نزول ملك ، أو أن يكون له بيت من  
 زخرف ... الخ .

والمعنى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على هداية قومه كان يتمنى لو آتاه  
 الله بعض ما طلب زعماءهم ظاناً أنهم بذلك يؤمنون فيتبعهم من عداهم فينقطع الشر ويعم  
 الهدى — فكان الجواب : لأنك إن استطعت الإتيان بآية مما اقترحوا من عند نفسك فافعل  
 أى انك لا تستطيع يا محمد الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا اقتضت مشيئتنا أن نؤتيك ذلك  
 لعلنا بأن ذلك لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم ، لأنهم معاندون عن معرفة فلا ينفع فيهم  
 شيء . ولو جئنا بما اقترحوا ولم يؤمنوا لأهدكناهم [ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا  
 ملكاً لفضى الأمر ثم لا ينظرون ] .

يقترحون الآيات صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يتمنى لو أتاه الله بعض ما طلبوا حرصاً على هدايتهم ، ودفعاً لحزنه وأسفه لكفرهم . ولكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من

= ومعنى [ لو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين ] : لو شاء الله جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم بجمل الإيمان ضروريا لهم ، كالملائكة . ولكنه تعالى شاء أن يكون بالاختيار ليتحقق نظام هذه الدار المدة للتكليف المستقيم للثواب والعقاب . فإذا عرفت أن هذه سنة الله في هذا النوع من الخلق فلا تكن من الجاهلين بسنة الله الذين يتمنون ما يرونه حسنا ، وإن كان حصوله ممتعا لكونه مخالفا للحكمة الإلهية . فالجهل هنا ضد العلم ، لا ضد الحلم . وليس كل جهل بهذا المعنى عيبا ، لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علما . وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه ، ثم بجهل ما ينبغي له وبعد كالاتي حقه إذا لم يكن معذورا في جهله . قال تعالى في وصف الفقراء المتعفين : [ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ] . فوصف الجهل هنا لم يكن ذما . وكل ما يتوقف علمه على الوحي الإلهي لا يكون جهل الرسول به عيبا قبل نزول الوحي به . وإنما الذي يذم هو الجهل المرادف لفسفه وهو ضد الحلم .

وما قيل لنبينا صلى الله عليه وسلم يشبه ما قيل لسيدنا نوح عليه السلام : [ لئى أعظك أن تكون من الجاهلين ] — أى بسبب لإدخال ولدك الكافر فى عداد أهلك المؤمنين . وإنما اقترن نهى نوح بالوعظ لأن عاطفة الرحمة الوالدية حملته على سؤال ما ليس له به علم اعتماداً على استنباط اجتهادى غير صحيح ، لأنه فهم أن وعد الله بنجاة أهله يشمل أهل النسب وإنما مراد الله أهل الإيمان . ورحمة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل كانت أعم وأشمل لأنها للأمة قاطبة لا للولد والقريب فقط .

وغاية ما تشير إليه الآية — ولو شاء الله لجمعهم على الهدى — أنه تمنى ولكن لم يسأل صراحة وأيضاً لو سأل لسأل آية يهتدى بها الضال من قومه لا الكافر من أهله فقط . فلذا اكتفى سبحانه وتعالى فى إرشاده بالنهى فقط ، وحسن فى إرشاد نوح التصريح بالوعظ ، والله أعلم .

الآيات ما يطلبون ، وفوق ما يطلبون ، كما قال : [ وَأَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلْيَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ] (١) .

فالرسول عليه الصلاة والسلام إزاء طلب الكفار اعترته حالة نفسية هي حالة التمني ، وذلك من حالات الإنسان كإنسان . ولا شك أن نزول الآية الكريمة بعدم اجابته إلى ما تمنى قطع لهذه الحالة عنده أو تصحيح للوضع كما يجب أن يكون عليه . والرسول الكريم يتمنيه هذا كأنه رأى ذلك لتيسير السبيل لدعوته . والله جل شأنه بعدم موافقته على ذلك - بناء على علمه بطبيعة هؤلاء الطالبين وأمثالهم - قد حدد الطريق السليم لنجاح دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكن أكان التحديد منه جل شأنه للطريق القويم فور تمنيه صلى الله عليه وسلم ؟ أم حصلت بين الأمرين فترة زمنية تجعل وقوع أحدها إثر الآخر معتبراً في تصور الإنسان على سبيل التراخي ؟ . والحكم على ذلك أيضاً شاق عسير . بالأخص إذا علم أن التمني أمر نفسي لا نستطاع معرفة بدايته عند التمني لغيره . والرسول عليه السلام وهو الذي كان هنا في حال التمني لم

يخبر بذلك ، والله وهو الذي وسع علمه كل شيء لم يوح على لسان نبيه  
المصطفى أيضاً بذلك .

\*\*\*

وفي حادثة ثالثة كان من تقاليد العرب في جاهليتهم أنه لا يتزوج الرجل  
زوجة متبناه ، إذا طلقها أو مات عنها . لأنهم كانوا يعتبرون زوجة المتبني كزوجة  
ابن الصلب تماماً . ولما جاء الإسلام بإبطال هذه العادة وكانت مسائل النكاح من  
الحساسية عند العرب بدرجة شديدة أراد الله أن يكون تشريع الإبطال نافذاً  
على وجه يقطع كل قول ويرفع كل حرج ، فأمر رسول الله بأن يسمع طلاق  
زيد إذا جاءه طالباً طلاق زوجته وأن يتزوجها هو نفسه ليبطل هذه العادة .

١ - وكان صلى الله عليه وسلم من جهته يخشى أن يكون في ذلك فرجة  
يدخل منها متقولوا المنافقين ، وفرصة ينتهزها الخصوم من الكافرين فتعنى  
أن يجعل الله إبطال هذه العادة على يد غيره ، تمنى صلى الله عليه وسلم ذلك في  
دخيلة نفسه ولم يفتح به أحداً .

٢ - فعوتب على ذلك من ربه ، وأنزل الله في ذلك آيات كثيرة من  
سورة الأحزاب . ومنها | وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ [١] .

[١] ستأتي زيادة لإيضاح هذه الحادثة عند الكلام عن «ما بدا من اجتهاده صلى الله  
عليه وسلم في صورة الأمر» .

والحكم هنا أيضاً في ترتيب أحد الأمرين على الآخر ، إن كان على انقور  
أم على التراخي ، مثل حكمنا به في سابقه للسبب الذي ذكر .

مابداً منه إجهاده في صورة « أنه لم يفعل » :

في القرآن الكريم بعض آيات يؤذن ظاهراً بتوجيه العتاب من قبل  
الله سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر نفسه جال بخاطره  
ولم يتعد ذلك إلى دائرة التنفيذ. فالله تعالى يقول : [ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ  
إِلَيْكَ وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ  
مَلَائِكَةٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ]<sup>(١)</sup> .  
والبغوي في تفسير هذه الآية يذكر سبب نزولها ، فيقول<sup>(٢)</sup> :

١ — إن كفار مكة لما قالوا : انت بقرآن غير هذا ليس فيه سب لآلهتنا

هم صلى الله عليه وسلم أن يدع آلهتهم ظاهراً .

٢ — فأنزل الله : [ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ ... الخ ] .

وهي مؤذنة بتوجيه عتاب ضمنى على ما قام بنفسه من « العزم والهم » .

ويقول الله تعالى في موضع آخر :

[١] آية ١٢ من سورة هود .

[٢] بعد أن يشرح الجملة الأولى منها بقوله : فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، أى فلا

تبلغه لإيام .

[ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ تَبَتُّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ] (١) .

وسعيد بن جبير يروى - في تحديد نزول هذه الآية الكريمة - :

١ - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الأسود فتمنعه قريش ، وقالوا . لا ندعك حتى تستلم آلهتنا وتمسكها .

٢ - فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه : وما على إذا فعلت ذلك والله تعالى يعلم أنى لها لكاره بعد أن يدعونى حتى أستلم البيت ؟ - وقيل : طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يمس آلهتهم حتى يسهوا ويتبعوه ، فحدث نفسه بذلك - فأنزل الله هذه الآية .

والألوسى فى تفسيره يذكر سبباً آخر لنزول هذه الآية ، ويقول : وأخرج ابن أبى حاتم عن جبير بن نفيير أن قريشاً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : إن كنت أرسات إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ! ، وكان صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ، ويجب إسلامهم ، فرق لكلامهم فنزلت ... وفى شرحه لها

يقول : والمعنى : إنك إن اتبعت أهواءهم أحلت نفسك محل المفتري علينا ،  
لأنك بذلك أوهمت أن ذلك بوحى فكنت كالمفتري . والله أعلم .  
وأيضاً كان سبب نزول هذه الآية أو التي قبلها فكلماتها تعطى أن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم جال بخاطره أمر نفسه يجول عادة بخاطر الإنسان  
كإنسان ، ثم تبلور هذا الأمر النفسى فى صورة « عزم » على تنفيذه ، فعاتبه  
الله على ذلك مبيناً له حكمته الإلهية فى خلاف ما هم على فعله .

\*\*\*

وكذا فى الحديث الشريف منه ما يعبر عن هذه الحال النفسية للرسول  
صلى الله عليه وسلم ، وهى حال الهم بفعل أمرٍ ما ، ثم عدم فعله لمصلحة فى  
الترك .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال .

١ - « والذى نفسى بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب ثم أمر  
بالصلاة فيؤذن لها ، ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ، ثم أخالف<sup>(١)</sup> إلى رجال  
فأحرق عليهم<sup>(٢)</sup> بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدكم أن يجد عرقاً<sup>(٣)</sup>

[ ١ ] أى آتيهم من خلفهم . قال الجوهرى : خالف إلى فلان أتاه إذا غاب عنه .

[ ٢ ] هذا يشعر بأن العقوبة ليست قاصرة على المال ؛ بل المراد تحريق من فى البيوت ، والبيوت

تبع . وفى رواية مسام : « فأحرق بيوتاً على من فيها »

[ ٣ ] العرق بفتح فسكون ، قال الخليل : العرق عظم عليه لحم .

سمينا ، أو مرمتين<sup>(١)</sup> حسنتين لشهد العشاء . وفي رواية مسلم : « أخر صلى الله عليه وسلم العشاء ليلة فخرج فوجد الناس قليلا فغضب . . . فذكر الحديث . » .

٢ - ولكنه لم يفعل ما هم على فعله إما باجتهاد آخر ، أو بوحى من الله في ذلك .

ويروى مسلم<sup>(٢)</sup> عن عائشة رضی الله عنها ، عن جدامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
١ - « لقد هممت أن أنهى عن نكاح الغيلة ،

٢ - حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم » .<sup>(٣)</sup>

[١] تثنية مرماة قيل : هي سهم يتعلم عليه الرمي . وقال ابن المنير : وتثنيته تشعر بتكرار الرمي ، ويكون صلى الله عليه وسلم أراد أن المتخلف قد جمع بين ما يؤكل وبين ما يتلهى به . قال ابن حجر : وفيه إشارة إلى ذم المتخلفين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشيء الحقيق من مطعم أو ملعوب به مع التفريط فيما يحصل رفيع الدرجات ومنازل الكرامة .

أما سبب عدم تنفيذ ما هم به صلى الله عليه وسلم هنا فلمله هو ما سيأتي في حديث أبي هريرة عند البخاري الآتي في ما بدا اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صورة « الطاب » ، حيث رجح صلى الله عليه وسلم عن أمره بتجريق رجال أفسدوا ، وقال : « إن النار لا يعذب بها إلا الله » .

[٢] في باب جواز الغيلة : والغيلة هي وطء الموضع .

[٣] وفي رواية أخرى عن مسلم عن جدامة أيضا قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغفلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئا » .

قال العلماء : وسبب همه صلى الله عليه وسلم بالنهي عنها خوف الضرر على الولد الرضيع . وكانوا يقولون : إن الأطباء ترى هذا اللبن داء ، إذا شربه الولد ضوى واعتل . فلذا كانت العرب تكرهه وتتقيه بقدر الطاقة .

والنوروى يعلق على هذا الحديث بقوله : وفي الحديث جواز اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وبه قال جمهور أهل الأصول .

وأيضاً هنا في صورة العزم وعدم الفعل يشق على الإنسان تحديد وقت العدول عن تنفيذه صلى الله عليه وسلم ما هم أن يفعله ، للسبب الذى ذكرناه فيما سبق .

### ما برأصه اجتهاده في صورة « الطلب » :

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : بعثنا صلى الله عليه وسلم في بعث ، فقال :

- ١ - « إن لقيم فلاناً وفلاناً - لرجلين من قريش ساهما - فحرقوها بالنار ،
- ٢ - ثم آتيناه نودعه حين أردنا الخروج ، فقال : إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار ، وإن النار لا يعذب بها إلا الله ، فإن أخذتموها

فاقتلوها . وفي رواية ابن إسحاق : « . . . ثم رأيت أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله » (١) .

ويعلق الحافظ بن حجر بقوله : وفي الحديث جواز الحكم بالشئ اجتهاداً ثم الرجوع عنه .

\*\*\*

ويروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه قال : كنا قعوداً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم - معنا أبو بكر وعمر في نفر - فقام صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقطع دوننا ، وفزعنا ، فقمنا ، فكنت أول من فزع حتى أتيت حائطاً للأَنْصار لبني النجار فدرت حوله حتى دخلته

[١] قال الحافظ بن حجر في التعليق على هذا الحديث : وفي رواية ابن إسحاق : « إن وجدتُم مبار بن الأسود والرجل الذي سبق منه إلى زينب ماسبق فحرقوها بالنار يعني صلى الله عليه وسلم وزينب بنته ، وكان زوجها ( أبو العاص بن الربيع ) أسرى يوم بدر ثم أطلقه صلى الله عليه وسلم يرجع إلى مكة وأخذ عليه عهداً أن يترك زينب تهاجر . فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب بعد أن جهزها : فتبعها هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس فنخسا بعيرها فسقطت ومرضت من ذلك : فبعث صلى الله عليه وسلم سرية ، وقال : « إن وجدتموها فاجعلوها بين حزمين من حطب ثم أشعلوا فيهما النار . . . ثم قال بعد ذلك إنى لأستحي من الله . لا ينبغي لأحد أن يعذب بعذاب الله ! » .

واستطرد الحافظ في التعليق ، وقال : وقد أسلم هبار هذا فلم تصبه السرية وأصابه الإسلام فهاجر وعاش إلى خلافة معاوية . أما رفيقه فلعله مات قبل أن يسلم ؛ إذ لم يظهر له بعد ذكر .

فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أبو هريرة ؟ فقلت : نعم  
يارسول الله ! قال : ماشأنك ؟ قلت : كنت بين أظهرنا . . . وذكر ما حصل .  
فقال صلى الله عليه وسلم : ياأبا هريرة ! .

١ - اذهب ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لاإله إلا الله  
مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة .

فكان أول من لقيت عمر . فسألني فقلت : بعثني رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : من لقيت يشهد أن لاإله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة .  
فضرب عمر بيده بين تديي فخزرت لاستي ، فقال : ارجع ياأبا هريرة !  
فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهشت بكاء ، وركبني عمر ، فإذا  
هو على إثرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك ياأبا هريرة ؟ قلت :  
لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثني به فضرب بين تديي ضرباً خزرت لاستي ،  
قال ارجع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر ! ما حملك على ما فعلت ؟  
قال : يارسول الله ! بأبي أنت وأمي ! أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن  
لاإله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة ؟ . قال : نعم ! . قال : فلا تفعل ،  
فإني أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون ! ،

٢ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخلهم ! »

\*\*\*

وأيضاً في قصة زينب بنت جحش وزيد بن حارثة ، عند ما توجه زيد هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تطليق زينب لسبب ذكره له ،  
١ - فقال الرسول الكريم لزيد : « أمسك عليك زوجك ،  
واتق الله » .

٢ - معاتبته الله على ذلك بقوله : [ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ  
مُبْدِيهِ ، وَتُخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... ]<sup>(١)</sup> ، فرجع عما أمر به  
زيداً مولاه .

ونود من باب الاستطراد أن نذكر كلمة تتعلق بهذا الحادث ، نظراً لما  
وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ غير مقصود في تفسير هذه الآية  
الكريمة واتخذة المبشرون وأعداء الإسلام مرتعاً خصيباً للتضليل وتشويه  
الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يكون أمام القارئ لهذه الرسالة ما يساعده  
على رد كيد الكائد لدينه .

روى ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن آية [ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا  
مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ]<sup>(٢)</sup>

[١] آية ٣٧ من سورة الأحزاب .

[٢] آية ٣٦ من نفس السورة السابقة .

نزلت في زينب بنت جحش لما خطبها صلى الله عليه وسلم لزيد مولاه فأبت ،  
فأنزل الله الآية ، فقبلت طوعاً لأمر الله . قال الألويسي في تفسيره تعليقاً على  
هذه الآية : وكان عرضه صلى الله عليه وسلم عليها زواج مولاه زيد إلهاماً من  
الله ، أو وحياً ، ليكون بعد وسيلة لما تلاه من التشريع .

وحاصل قصة « زينب وزيد » على ما أخذ من شرح البخاري والتفسير :

أن المعروف أن الولد إما :

( أ ) ولد نسب ،

( ب ) أو ولد رضاع ،

( ح ) أو ولد تبني مع معرفة الأب ،

( د ) أو ولد تبني مع عدم معرفة الاب .

وكانت العرب جرت في عاداتها أن لا يتزوج الرجل زوج ولده ، أيًا كان

الولد من هذه الأنواع الأربعة .

ولما جاء الإسلام أباح أن يتزوج الرجل امرأة متبناه ، المعروف الأب إذا

طلقها ، أو مات عنها . وكانوا يسمون هذا « دعي فلان أو متبناه » .

ولما كانت عوائد العرب في مسائل النكاح حساسة جداً في هذه

الناحية وأراد الله إبطال عاداتهم هذه بتشريع مبيح على وجه ملزم بالحل

لكل من تحدثه نفسه بالتحلل منه ، أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يزوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة ، وأنه إذا طلقها زيد بعد ذلك يتزوجها صلى الله عليه وسلم ليبطل تلك العادة بنفسه هو حتى تكون قوة القدوة ماحقة لقوة العادة . ولهذا كانت العناية الإلهية بهذا الموضوع ظاهرة في هذه السورة - الأحزاب - من أولها . وقد نزلت في السنة الخامسة من الهجرة ، على ما قال ابن الأثير ، وجاء في أولها تهيداً لهذا التشريع العظيم الذي حارب عادة تأصلت في نفوس العرب من قرون طويلة قوله تعالى : [ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ . ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بَأْفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ... الخ (١) ] .

وقال تعالى في موضوع الحادث : [ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا  
زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا  
قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ  
فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا  
مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا  
اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ  
رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا<sup>(١)</sup> .

ويعلق الحافظ بن حجر على ذلك بقوله : أخرج ابن أبي حاتم هذه  
القصة من طريق السدي ، فقال : إن هذه الآيات نزلت في زينب بنت  
جحش - وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب ، عمه رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، وكان خطبها صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة ، وقال لها :  
« إني أريد أن أزوجه زيد بن حارثة ، فإني قد رضيت لك » فأبت ، وقالت :  
يا رسول الله ! لكني لا أرضاه لنفسي ، وأنا بنت عمك فلم أكن لأفعل  
- وفي رواية أنها قالت : وأنا خير منه حسباً - ووافقها أخوها عبد الله على  
ذلك ، فنزل قوله تعالى : [ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ ... الْآيَةَ ] .

ويقول ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : لما نزلت الآية رضيت هي وأخوها ، فأنكحها صلى الله عليه وسلم زيدا ؟ وساق إليها عشرة دنانير وستين درهما مهراً مع أشياء أخرى من طعام ولباس .

وما كان هذا الزواج غير طبعي لما علمت من مكانها ومكانه ، ومن رغبتها عنه وأنفتها وتواضعه هو وانكساره كان ما لا بد منه عادة . وقد جاء زيد إليه صلى الله عليه وسلم يوماً ، وقال يا رسول الله ! : إن زينب قد اشتد علي لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها . فقال له صلى الله عليه وسلم : « أُمِسِّكْ عَلَيْكَ زَوْجِكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » ، فأنزل الله آيات الأحزاب السابقة<sup>(١)</sup> معاتباً له

[ ١ ] والمفسرون يشرحون هذه الآيات فيذكرون [ وماذا تقول للذي أنعم الله عليه ] بالاسلام وبجمله تحت رعايتك [ وأنمت عليه ] بالعتق وبالتربية الحسنة [ وتحنى في نفسك ما الله مبديه ] الذي أخفاه صلى الله عليه وسلم على ما أخرجه الترمذى وغيره عن علي بن الحسين : هو ما أوحى الله تعالى به إليه أن يتزوجها بعد طلاق زيد لها ليتحقق التشريع المطلوب .

هذا ما ذهب إليه محققو المفسرين كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، وأبي بكر بن العربي ، وغيرهم . وقالوا : ويكون حاصل العتاب : لمقات : « أُمِسِّكْ عَلَيْكَ زَوْجِكَ ؟ » ، وقد أمرت أن تتزوجها بعد طلاقها وعدتها . وهذا المعنى هو المطابق للحاصل من سياق الآيات ، لأن الله تعالى يقول : [ وتحنى في نفسك ما الله مبديه ] والله لم يظهر شيئاً كان خافياً سوى زواجه صلى الله عليه وسلم بها ، وقال : [ زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ... ] فلو كان المضمرة المحبة كما يقول المفترون والجاهلون لما صحت الآية ، لأن الله لم يظهر هذه .

على قوله هذا ، ولم يجبه إلى ما أراد ، وهو أن لا يكون المباشر في إبطال  
العادة المذكورة .

== ونقول نحن : والذي يظهر أنه صلى الله عليه وسلم قال ما قال من شدة حياته صلى الله  
عليه وسلم وخوفه من قالة سوء بطلقها المنافقون والمرجعون في المدينة ، وقد كانوا كثيرين  
يتربصون مرتعا يحبون فيه وينفثون من سموم الشكوك ما يطيقون . ورأى صلى الله عليه وسلم  
أن في موقفه هذا أمنا على المسلمين من شر فتنة ، خصوصا من كان قريب عهد بالإسلام منهم .  
والظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان يرجو من الله أن يعفيه من أن يكون هو القدوة  
العملية في هذا المبدأ ، وأن هذا التشريع لا يتوقف نفاذه واشتهاره على أن يكون هو نفسه  
البادىء به ، وبذلك تتحقق المصلحة في نظره صلى الله عليه وسلم وينسد باب الفتنة . فهو  
لا يمدو أن يكون اجتهاداً منه صلى الله عليه وسلم أظهره الله على أن غيره هو الصواب .  
وقد قال الحافظ بن حجر : والحاصل أن الذي كان يخفيه صلى الله عليه وسلم في نفسه  
هو أنها ستكون زوجته ، والذي كان يحمل على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج  
امرأة ابنه . وأراد الله إبطال هذه العادة بأمر لا يبلغ في الإبطال منه ، وهو وقوع ذلك  
من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم .

ومثل هذا ما قاله الحفاجي على النفاء ، وعبارته : والظاهر أن الله تعالى لما أراد نسخ  
تحريم زوجة المتبني أوحى إليه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد ، فلم  
يبادر صل الله عليه وسلم مخافة طعن الأعداء فعوتب على ذلك .

أخبر مسلم والترمذي عن عائشة وأنس - قالا : لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكان  
هذه الآية : [ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه . . . إلى قوله : وتخشى الناس والله أحق  
أن تخشاه ] .

ويستطرد المفسرون في الشرح ، فيقولون : [ ما كان على النبي من حرج فيما فرض  
الله له ] معناه ما صح أن يكون عليه ضيق ولا إثم فيما قسم الله له . قال الراغب : لا تأخذ  
من عبادك نصيباً مفروضاً أى مقطوعاً متميزاً عن غيره ، معلوماً ، وقال : كل موضع ورد =

لكن أكانت هناك فترة من الزمن بين أمره الذي عنون له بقوله :

== في القرآن « فرض عليه » ففي الإيجاب ، و « فرض له » فهو في ألا يحظره على نفسه ومنه قال قتادة في معنى الآية : أى فيما أحل الله له ، [ سنة الله في الذين خلوا من قبل ] .  
أى من قبلك من الأنبياء حيث لم يخرج جل شأنه عليهم في الإقدام على ما أحل لهم ووسع عليهم . [ الذين يبنفون رسالات الله ] صفة للذين خلوا من قبل من الرسل [ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ] قال المفسرون . في وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعريض بما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من الاحتراز عن لأئمة الناس من حيث إن اخوانه المرسلين لم تكن سيرتهم التى ينبغى الاقتداء بها ذلك ، وهذا كالتأكيد لما تقدم من التصريح فى قوله : [ وتخصى الناس والله أحق أن تخشاه ] .

[ ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ] رد لمنشأ خشيته صلى الله عليه وسلم للناس المعاتب عليها ، وهو قولهم : أن محمداً تزوج امرأة ابنه ، فقد رد كون زيد ابنه الذى تحرم زوجته على أبلغ وجه ، والأبوة المنفية هنا هى الأبوة الحقيقية الشرعية ، سواء أكانت بالولادة أم بالرضاع ، أم تبني من يولد مثله لمثله وهو مجهول النسب ، ومن المعلوم عندهم أن زيدا من رجالهم فليس له صلى الله عليه وسلم عليه أى أبوة من هذه . [ ولكن رسول الله ] صلى الله عليه وسلم ، لما كان من المشهور أن كل رسول أب لأمة فيما يرجع إلى وجوب تعظيمه وتوقيره ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، وكان نبي الأبوة على الاطلاق ربما تعدى إلى ذلك ، استدرك على ما يتوهم من نفي الرسالة بإثباتها تنبيها على أن الأبوة المنفية شىء والمثبتة شىء آخر . فحاصل الكلام استدراك بمد نفي الأبوة الحقيقية الشرعية بإثبات الأبوة المجازية اللغوية التى هى من شأن كل رسول ، وبذلك نفي توهم الملازمة بين الأبوتين . [ وخاتم النبيين ] جىء به مشيراً إلى كمال نصحه صلى الله عليه وسلم وشفقته عليهم ، وأن أبوته لأمة فوق أبوة كل رسول لأمة ، وذلك لأن الرسول الذى يشعر بأن بعده رسول ربما لا يبلغ فى الشفقة غايتها ، وفى النصيحة نهايتها اتكالاً على من يأتى بعده ، كالوالد الحقيقى الذى يعلم أن لولده من بعده من يقوم بشأنه مقامه . والله أعلم :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » وبين عتاب الله جل شأنه له الذى بدا فى قوله :  
[ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ]  
أم كان وقوع العتاب فور صدور هذا الأمر منه صلى الله عليه وسلم ؟ يتوقف  
تحديد ذلك على الثبوت التاريخي .

ما بردا من اجتهاده فى صورة « الإذنه » :

ثم هنا أيضاً رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وبدا رأيه فى صورة  
« إذن وتسويغ » لشخص أو نفر من الناس ، ثم نزل الوحي بتعديل رأيه :  
١ — فى حين استأذن بعض المنافقين النبي صلى الله عليه وسلم التخلف  
عن غزوة تبوك فأذن لهم على ضعف أعدائهم — وتخلف من المؤمنين آخرون —  
فأنزل الله فى الجميع آيات نزلت أثناء سفره صلى الله عليه وسلم فى نفس الغزاة ،  
وهى قوله تعالى : [ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبِعُوكَ وَلَا كِنَ  
بَعُدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ ... الخ <sup>(١)</sup> ] .

٢ — وعاتبه سبحانه وتعالى على إذنه لهم بذلك ، إذ وجه إليه الخطاب

بقوله : [ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَا لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا  
وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ <sup>(١)</sup> ] .

والمنازل في تفسير هذه الآية الكريمة يقول : [ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ] العفو  
التجاوز عن الذنب والتقصير ، وترك المؤاخذة عليه : [ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ] أى هلا  
استأنيت وتريثت بالإذن حتى يتبين لك الصادق في الاستئذان والكاذب  
الذى قرر التخلف أذنت أم لم تأذن ، فتعلق [ حتى ] مفهوم من السياق .  
ثم يستطرد فيقول إن الرخشري أساء الأدب في تفسير العفو <sup>(٢)</sup> . ويقول :  
إن الفخر الرازى في تفسيره جاء على الطرف الآخر محاولاً إثبات أن  
لا ذنب <sup>(٣)</sup> .

ونحن من جانبنا نرى أن الفخر الرازى ما كان لمثله أن يهرب من إثبات  
ما أثبتته الله في كتابه في عدة مواضع لأنبياء كثيرين - نبينا صلى الله عليه وسلم  
واحد منهم - تمسكاً باصطلاحات وعرف <sup>(٤)</sup> مستحدث في « الذنب » مخالف  
لمدلول اللغة . فالذنب في اللغة : كل عمل يستتبع ضرراً أو يفوت مصلحة ،

---

[١] آية ٤٣ من السورة السابقة ، ونزلت هي وغيرها في هذه السورة في شأن غزوة  
تبوك ، وهى « غزوة العسرة » المشهورة بشدة الحر وبعد الثقة ، وكانت في رجب سنة  
تسع من الهجرة .

[٢] عبارة الرخشري : [ عفا الله عنك ] كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ،  
ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت . [٣] إذ يرى أن العفو إنما هو مخالفة الأولى فقط .  
[٤] هو مرادفة الذنب للمعصية .

مأخوذ من « ذنب الدابة » وليس مرادفا للمعصية ؛ بل أعم منها ، والاذن المفعول عنه هنا قد فوت المصلحة المنصوص عليها في الآية ، وهي علم جميع الناس بالصادق والكاذب من هؤلاء المتخلفين . فكان المطلوب ألا يأذن صلى الله عليه وسلم لهم حتى يفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، وحتى لا يبهجوا ولو قليلا بأنهم غرورا به صلى الله عليه وسلم وأضلوه بالكذب . وقد نسب الله للنبي صلى الله عليه وسلم الذنب في موضع آخر من كتابه العزيز ، فقال : [ وَأَسْتَفِرُّ لِدِينِكَ وَاللَّهُمُّنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ] .

وقد كان « الإذن » المعاتب عليه هنا اجتهاداً منه صلى الله عليه وسلم فيما لا نص فيه من الوحي . وهو جائز على الأنبياء وأيسوا معصومين من الخطأ فيه ، فقد كان الأولى منه صلى الله عليه وسلم أن يؤخر الإذن لهؤلاء المنافقين حتى يفتضحوا من أنفسهم .

\*\*\*

١ - وفي حين آخر يروى مسلم في صحيحه عن عامر بن شراحيل الشعبي عن فاطمة بنت قيس - وكانت من المهاجرات الأول - قالت : نكحت ابن المغيرة ، وهو من خيار شباب قريش يومئذ ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما تأيمت خطبني عبد الرحمن بن عوف ،

وخطبني صلى الله عليه وسلم على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحبني فليحب أسامة » فلما كلمني صلى الله عليه وسلم قلت : أمرى بيدك فأنكحني من شئت . فقال : « انتقلى إلى أم شريك » .

٢ - فقلت : سأفعل . فقال : « لاتفعل ! إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان ، فإني أكره أن يسقط عنك خمارك ، أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهيه ، ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبد الله بن أم مكتوم . . . فانتقلت إليه . . . الخ (١) .

\*\*\*

وفي مقام ثالث يروى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزله المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشتروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يحشروا (٢) ، ولا يعشروا (٣) ولا يجبوا (٤) ، ولا يستعمل عليهم غيرهم .

[١] وفي رواية : « تأيت وكان بيتي في مكان خال فحفت أن أعتد فيه .  
(١) فرخص لي النبي صلى الله عليه وسلم في النقلة إلى موضع آخر ، فأمرني أن أعتد في بيت أم شريك .

(ب) ثم رجع صلى الله عليه وسلم فقال : « إن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون فانطلق إلى ابن أم مكتوم الأعمى فانك إذا وضعت خمارك لم يرك . [٢] أي لا يندبون إلى المغازي . [٣] أي لا يؤخذ منهم عشر أموالهم . [٤] أي لا يصلوا .

١ — فقال صلى الله عليه وسلم : « لكم أن لا تحشروا ولا تعشروا ، ولا يستعمل عليكم غيركم ، ولا خير في دين لا ركوع فيه » .

ويروى أبو داود عن جابر أنه يقول : اشترطت ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليها ، ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك :

٢ — « سيصدقون ، ويجاهدون »<sup>(١)</sup> .

فأولاً أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم إخراج الزكاة ، وعدم خروجهم إلى الجهاد . وهما أمران لا تقدم عليهما إلا النفس المؤمنة ، المطمئنة في إيمانها ، إذ المال والنفس في مقدمة ما يحرص عليه الإنسان ويبدل جاهداً دون أن يفقد واحداً منهما ، ولا سبيل إلى التغلب على هذا الطبع البشري إلا بالإيمان

---

[ ١ ] قال في اللسان : وأما حديث بشير بن الحصاصية حين ذكر له صلى الله عليه وسلم شرائع الإسلام فقال : أما اثنان منها فلا أطيقهما : الصدقة والجهاد . فكسف صلى الله عليه وسلم يده ، وقال « لا صدقة ولا جهاد ! ! فبم تدخل الجنة ؟ » . فلم يحتمل صلى الله عليه وسلم لبشير ما احتمل لثقيف . ويشبه أن يكون إنما لم يسمح صلى الله عليه وسلم لبشير لعلمه أنه يقبل إذا قيل له ما قيل ، وثقيف كانت لا تقبله في الحال . وأيضاً هو واحد وهم جماعة ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يتأفهم ويترجمهم على الإسلام شيئاً فشيئاً .

بأعز منهما، والله سبحانه وتعالى لدى المؤمن به حقا أعز من النفس ، والمال ،  
والولد ، والحياة الدنيا كلها .

ثم هو صلى الله عليه وسلم ثانيا ترقب منهم أن يؤدوا الزكاة ويخرجوا إلى  
القتال بدافع الإيمان ، دون احتياج إلى نصيحة أخرى منه ، إن آمنوا وتغلغل  
الإيمان في قلوبهم .<sup>(١)</sup>

وهذا شأنه صلى الله عليه وسلم يتدرج القوم رويداً رويداً ، ويلين لهم  
من جانبه ويتساهل في مطالبه تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد ، حتى إذا  
وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعب على النفس وعلى المألوف في  
عاداتهم ويتحملون المشاق في كل جانب من جوانب حياتهم في سبيل نصرته  
ما آمنوا به واستمرار بقائهم عليه .

\*\*\*

ومما يدخل في هذا الباب للغاية نفسها ما يرويه أبو داود عن عبد الله بن  
فضالة عن أبيه ، قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما علمني :  
« وحافظ على الصلوات الخمس ! » . قال : قلت : إن هذه ساعات لي فيها  
أشغال ، فرني بأمر جامع إذا أنا فعلته أجزأ عني ، فقال :

(١) كما في رواية أبي داود عن جابر المتقدمة .

١ — « حافظ على العصرين ! » — وما كانت من لغتنا — فقلت : وما

العصران ؟ فقال : « صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها »<sup>(١)</sup> .

ويروى أحمد في مسنده عن نصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبي

صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لا يصلى إلا صلاتين ، فقبل ذلك منه . ويعلق

الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصاري الحنفي النقشبندی في شرحه « بذل

المجهود في شرح سنن أبي داود » على رواية أحمد هذه بقوله :

فظهر بذا أنه أسقط عنه ثلاث صلوات . فكان من خصائصه صلى الله

---

[١] ويروى أبو داود أيضا ، وسلم ، عن أبي بكر بن عمارة بن رؤبة عن أبيه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن يلعج النار رجل صلى قبل طلوع الشمس  
وقبل غروبها » يعني الفجر والعصر .

ويعلق عليه الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصاري الحنفي النقشبندی في شرحه : [ بذل

المجهود في شرح سنن أبي داود ] بقوله : « لا يلعج النار » أي لا يدخلها أصلا للتعذيب  
أو على وجه التأييد .

كما يعلق على رواية أبي داود عن عبد الله بن فضالة بقوله : قال [ في درجات المراقبة ] :

قال ولي الدين : هذا الحديث مشكل بيادى الرأى . إذ يوم إجزاء صلاة العصرين لمن له

شغل عن غيرها ، فقال البيهقي في تأويله — وأحسن — : كأنه أراد — والله أعلم — :

حافظ عليها بأول أوقاتها ، فاعتذر بأشغال مقتضية لتأخيرها عن أولها ، فأمره بالمحافظة على  
الصلاتين — العصر والفجر — بأول وقتها .

لكن تأويل البيهقي على هذا النحو يبعد أن يكون الحديث تصويرا للرأى اجتهادى من

الرسول صلى الله عليه وسلم يتصل بالتخفيف على الداخلين في الاسلام ، أملا في أن يعودوا

فيما بعد إلى الوضع العام الذى التزمه كل المسلمين . والبيهقي بذلك يخالف حديث نصر بن

عاصم عند أحمد ورأى « الفتح » و « الشوكاني » الآتى بعد في صفحة ٩٩ .

عليه وسلم أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام ؛ ويسقط عن شاء ما شاء من الواجبات .

والظاهر أن هذا الرجل المبهم في حديث أحمد بن حنبل هو فضالة الذي في حديث أبي داود ، فإنه ليثي ، ونصر بن عاصم ليثي .

وقد ترجم الفتح الرباني لحديث مسند أحمد هذا بقوله : « فصل في ترغيب

المشركين في الإسلام ونأليف قلوبهم » ، وترجم له الشوكاني بقوله : « باب صحة الإسلام مع الشرط الفاسد »<sup>(١)</sup> .

[١] ويقرب من هذا في تيسيره صلى الله عليه وسلم الدين على الداخلين فيه باجتهاده مارواه أبو داود ، والبخاري ، وابن سعد ، وابن حبان والحاكم في صحيحهما عن أبي سعيد : أن امرأة صفوان بن المعطل ( بتشديد الطاء مفتوحة ) جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن زوجي يضربني إذا صليت ، ويفطرنى إذا صمت ، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس . قال - وصفوان عنده صلى الله عليه وسلم - فسأله فقال : أما قولها : يضربني إذا صليت فإنها تقرأ سورتي [ يريد آيات قصة الافك من سورة التور ، لأنه هو الذي حمل السيدة عائشة رضي الله عنها على جله ولحق بالركب ] وقد نهيتها عنها ، وأما قولها : يفطرنى إذا صمت فأنا رجل شاب لأصبر ، وأما قولها : لا أصلي حتى تطلع الشمس فإننا أهل بيت قد عرف لنا ذلك فلا نستيقظ حتى تطلع الشمس .

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على هذه الرواية : إن رجال هذا الحديث من رجال الصحيح ، ولم يعلم أن أحدا نقل أنه صلى الله عليه وسلم رد على صفوان بشيء . فلعل سكوته صلى الله عليه وسلم عنه كان من تمام ترغيبه في الإسلام وتيسيره عليه علما منه صلى الله عليه وسلم أنه سيحافظ فيما بعد على سننه وآدابه ، كما قال في وقد تقيف : « إنهم سيفعلون » كما تقدم .

٢ — لكن قبوله صلى الله عليه وسلم من فضالة الاقتصار على صلاة  
العصرين كان قبولاً مؤقتاً ، أملاً في أن يصبح فيما بعد كبقية المسلمين يؤدي  
من فروض الصلاة ما يؤديه غيره .

وكان ما يترقبه الرسول صلى الله عليه وسلم هنا من فضالة — بعد أن يتمكن  
الإيمان من قلبه — تعديلاً لما أذن له من أجزاء صلاة العصرين عن اليوم كله  
أول الأمر .

\*\*\*

وكذا ما في رواية البخارى عن أم عطية من أنها قالت : بايعنا صلى الله  
عليه وسلم فقراً علينا : « أن لا يشركن بالله شيئاً » ونهانا عن « النياحة »  
فقبضت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتنى <sup>(١)</sup> فلانة فأريد أن أجزيها ،

١ — فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئاً <sup>(٢)</sup> فانطلقت ،

٢ — ورجعت فبايعها .

وفي رواية النسائى . . . قال :

١ — فاذهي فأسعدتها ، فذهبت فساعدتها ،

[١] قال الحافظ : الإسعاد قيام المرأة مع الأخرى في النياحة ترأسها ، وهو خاص بهذا  
المعنى ، ولا يستعمل إلا في المساعدة على البكاء .

(٢) وفي رواية عاصم : . . . فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا آل فلان » .

٢ - ثم جئت فبايعت .

قيل في تعليل هذا : الترخيص كان خصوصية لأم عطية ، وقيل : إن ذلك كان قبل تحريم النياحة .

ورد القرطبي هذا التخريج الأخير - ووافقه الحافظ ابن حجر - وقال : دعوى أن ذلك كان قبل تحريم النياحة فاسدة لمساق حديث أم عطية . فلولا أنها فهمت التحريم لما استثنت . وأيضاً أم عطية نفسها صرحت بالنهي عن النياحة .

ويرد - أيضاً - دعوى كون ذلك خصوصية لأم عطية بثبوت مثل ذلك لغيرها : فقد أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء فبايعهن أن لا يُشركنَ بالله شيئاً ، قالت خولة بنت حكيم : يا رسول الله ! كان أبى وأخى ماتا فى الجاهلية وأن فلانة أسعدتني وقد مات أخوها ... الحديث . وأخرج الترمذى أيضاً عن أم سلمة الأنصارية - وهى أسماء بنت يزيد - قالت : قلت يا رسول الله ! إن بنى فلان أسعدونى على عمى ولا بد من قضائهن ، فأبى . قالت : فراجعتهم مرارا فأذن لى ، ثم لم أتح بعد . وأخرج أحمد والطبرى كذلك - من طريق مصعب بن نوح - قال : أدركت عجوزا لنا كانت فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قالت : فأخذ علينا ... ولا ينحن ، فقالت : عجوز : يا نبي الله ! إن ناساً كانوا أسعدونا على مصائب أصابتنا ، وانهم قد أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أن أسعدهم ، قال : « فاذهبى فكافئهم » . قالت : فانطلقت فكافأتهم ، ثم أتت فبايعته .

ولم يبق بعد رد القرطبي لما سبق من تخريج الحديث على أن الإذن بالنيابة كان قبل تحريمها - إلا أن يكون الحديث معبراً عن اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم بنية تيسير الإسلام على من دخل جديداً فيه معتمداً على أنه سيكون في سلك بقية المؤمنين بعد أن يتمكن نور الإسلام من قلبه .

فقد أذن صلى الله عليه وسلم هنا بالنيابة - وهي أمر غير مرغوب فيه - وإذنه بذلك مؤقت ، والإذن المؤقت ينطوي على معنى العدول عن استمراره واعتباره قاعدة عامة .

ما بدأ به اجتهاده في صورة « الدعاء » :

وهذه صورة أخرى من الصور الكثيرة التي بدأ فيها اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بمعنى العبادة<sup>(١)</sup> ، وهي صورة الدعاء على بعض

(١) فقد ورد : « الدعاء من العبادة » .

الناس من كافرين ومؤمنين لما وقع منهم من أحداث أثارت دخيلة نفسه عليه السلام

١ — قال البخارى — ويوافقه فى الرواية أحمد والترمذى والنسائى — يروى عن ابن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لما جرح وكسرت ربايعيته<sup>(١)</sup> ورأى تمثيل الكفار بعمه حمزة وبالمسلمين : « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » . فتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم ويسجل عليهم سخطه .

٢ — وفى إثر ذلك نزلت هذه الآية : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ<sup>(٢)</sup> » .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعا عليهم وطلب من الله أن يلعنهم كان ذلك عن اجتهاد منه . لكن لم يقره الله سبحانه وتعالى على اجتهاده إذ نهاه عما طلب بقوله الكريم فى هذه الآية السابقة ، على رأى من يرى من

[١] الرباعية بفتح الراء هى التى بين الثنية والتاب . وأراد بكسرها أنها ذهبت منها فلقه

ولم تطلع من أصلها . والرباعية التى كسرت منه صلى الله عليه وسلم هى السفلى اليمنى .

[٢] آية ١٢٧ من سورة آل عمران .

المفسرين أنها نزلت في شأن أحد . ومن هؤلاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .  
ويلعل ما أتجه إليه بقوله فيما نقل عنه من تفسير القرآن الكريم : ما قبل  
الآية وما بعدها<sup>(١)</sup> في قصة أحد ، فيجب أن يكون الكلام كله في أحد صونا  
للقرآن عن تكلف ينزه عن مثله كلام الله .

\*\*\*

[١] الآية التي قبلها : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين » ،  
والتي بعدها قوله تعالى : « ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من  
يشاء والله غفور رحيم » .

وبعض آخر من المفسرين يرى في سبب نزول الآية أنها كانت في دعائه صلى الله عليه  
وسلم على أصحاب بدر معونة — وكانت بعد أربعة أشهر من أحد — ودعا عندها على رعل  
وذكوان وعصية . . . الخ .

ومعنى قوله تعالى « ليقطع » ذهب بعض المفسرين إلى أنه متعلق بقوله : « ولقد نصركم  
الله ببدر » ، واختار بعضهم أنه متعلق بمفهوم من المقام متعلق بواقعة أحد المقصودة  
بالكلام بالذات لأن ذكر بدر إنما جاء استطراداً . ويكون المعنى : فعل الله ما فعل ليقطع  
طرفاً أي يهلكهم .

ومعنى قوله جل شأنه « أو يكتبهم » — كما يقول البيضاوي — يخزيهم . والسكبت شدة  
الفيظ أو وهن يقع في القلب . وقوله « ليس لك من الأمر شيء » اعتراض بين المعطوفات .  
وقوله « أو يتوب عليهم » معطوف على يكتبهم . ومعنى « أو يعذبهم » هو بما أعد لهم  
في الآخرة من عذاب أليم ، والمراد بعذاب هذا الفريق هو التعذيب الشديد جداً المخصوص  
بأشد الكفرة كفراً ، وإلا فطلق التعذيب الأخرى متحقق في الفريقين الأولين . ف « أو »  
في الآيات للتنويع لا للتديد . والمعنى كله : أنه يقطع طرف طائفة ، ويكتب طائفة أخرى ،  
ويتوب على طائفة ، ويعذب أخرى عذاباً أكبر .

ومعنى « ليس لك من الأمر شيء » : ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم  
أمرى ، وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، إنما أمرهم بعد ذلك إلى والقضاء فيهم بيدي دون غيري ،  
أضنى فيهم وأحكم بالذي أشاء حتى بالتوبة على من كفر بي . . . الخ .

ثم هذا مثل آخر لهذه الصورة من صور اجتهاده صلى الله عليه وسلم ،  
وهي دعاؤه على بعض المؤمنين :

١ — فسلم يروى في صحيحه عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت : دخل  
على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو  
فأغضباه فلعنهما وسبهما - وفي رواية فخلوا به فسبهما ولعنهما وأخرجهما - فلما  
خرجا قلت يا رسول الله ما أصابا من الخير شيئاً ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت :  
لعنتهما وسببتهما ، قال : أو ما علمت ما شارطت ربي عليه ؟ ،

٢ — قلت : اللهم إنما أنا بشر ، فأى المسلمين لعنته أو سببته فأجعله  
له زكاة وأجرا .

فالرسول عليه السلام كما يؤخذ من هذه الرواية قد سلك مسلك الإنسان  
العادي يغضب ويلعن لأمر يثير نفسه ، ثم يعود فيرجع ويطلب من ربه  
- شفقة ورحمة - أن يجعل الدعاء على من دعا عليه من المسلمين دعاء له بأن  
يكون زكاة وأجرا له . وفي هذا يروى مسلم عن أبي هريرة أنه قال : سمعت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب  
البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه : فأبما مؤمن آذيته أو سببته  
فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة » .

ونحن في إسنادنا الاجتهاد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لا نبغى أكثر من أن نقرر أنه صلى الله عليه وسلم بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر، فيما عدا ما خصه الله به من رسالة فهو فيها معصوم وقوله فيها قول الحق جل جلاله (١).

ما بدا من اجتهاده في صورة تفضيل الترك على الفعل :

وهذا نوع آخر غير ما تقدم من الأمثلة التي تدل على اجتهاده صلى الله عليه وسلم وبالتالي على أنه بشر إلا فيما عصمه الله فيه في دائرة الرسالة والتبليغ، وهو اجتهاده عليه السلام في صورة تفضيل الترك على الفعل . فيروى عنه صلى الله عليه وسلم في « تلقيح النخل » أنه نصح لهم بعدم تلقيحه اجتهاداً منه

[١] ويشبه هذه الصورة الأخيرة ما يرويه مسلم أيضاً عن أنس بن مالك ، قال : كانت عند أم سليم يتيمة . فرأى صلى الله عليه وسلم اليتيمة فقال : أنت هيه - أنت هيه - أنت هيه بعد الهمة وفتح الياء استفهام على معنى التعجب وكأنه ( س ) رآها قبل ذلك صغيرة ثم غابت عنه مدة فرآها قد كبرت فتعجب من سرعة ذلك . ودعاؤه عليها من الدعاء الجاري على اللسان من غير قصد - ؟ لقد كبرت ! لا كبر سنك . فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي فقالت أم سليم : مالك يا بنية ؟ قالت الجارية : دعا على صلى الله عليه وسلم ألا يكبر سني أبداً . فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث - تلوثه أي تديره على رأسها - فخارها حتى لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : مالك يا أم سليم ؟ فقالت يا نبي الله أدعوت على يتيمتي ؟ قال : وما ذاك يا أم سليم ؟ قالت : زعمت أنك دعوت ألا يكبر سنها . قال : فضحك صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أم سليم ! أما تعلمين أني اشترطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر ، فأبى أحد دعوت عليه من أمي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة تقربه بها يوم القيامة . قال القرطبي : والحديث يدل على أن الصغار والكبار كان معلوماً عندهم قبول دعائه ( س ) ولذا فرعت أم سليم من دعائه على جارتها . وبكت اليتيمة لما سمعت دعاءه عليها .

بأن في ذلك مصلحته . ولما نفضت غلته فيما بعد بسبب عدم تلقيحه وذكروا له ذلك قال : « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . يرويه مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup> عن زافع بن خديج . ونص الرواية : قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه ! قال : لمكم لو لم تفعلوا كان خيرا ، فتركوه فنفضت قال فذكروا ذلك له صلى الله عليه وسلم فقال : إنما أنا بشر . . الخ .

وفي رواية أحمد : ما كان من أمر دينكم فإلى وما كان من أمر دنياكم فأتتم أعلم به .

وفي رواية أخرى لمسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على رؤس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أظن يغني ذلك شيئا ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنني إنما ظننت ظنا

---

[١] في باب : وجوب امثال ما قاله صلى الله عليه وسلم شرعاً ، دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي .

فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني إن  
أكذب على الله عز وجل .

وفي رواية ثالثة له أيضاً عن عائشة وأنس أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم  
يلقحون النخل فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، فخرج شيصاً ، فمربهم فقال :  
ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

وأياً كانت صيغة الرواية عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك فقد رأى رأياً في  
صورة ما - هي هنا صورة تفضيل الترك على الفعل - تبين له فيما بعد خلافه  
بحكم ما صار إليه الأمر في الواقع . ولما كان الذي رآه عليه السلام هنا لم  
يحقق مصلحة لقومه بل جلب مضرة لهم اعتذر من ذلك واستنّ لهم مبدأً عامّاً  
في اتباع ما يقوله وهو . . . إذا أمرتكم بشيء من دينكم - وفي رواية إذا  
حدثكم عن الله شيئاً - فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما  
أنا بشر .

وصيغة هذا الحديث واضحة في الهدف الذي هدفتنا إليه من هذا  
الكتاب ، وهو تعدد جوانب الرسول عليه السلام ، فكان له جانب بشري  
يجوز عليه من أجله ما يجوز على البشر ، وجانب آخر يمتاز به عن البشر وهو

ما يتصل فيه بربه جأت عظمته من حيث إنه رسوله وإنه كلف بتبليغ رسالته إلى الناس كافة .

والنورى يعلق على هذا الحديث بقوله : قال العلماء : رأيه صلى الله عليه وسلم في أمور المعاش كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا - وقوع ما يخالف رأيه كخروج النخل شيصا هنا - ولا نقص في ذلك : وسببه تعلق همه بالآخرة ومعارفها .

وقال الأبي قال القرطبي : قال ذلك صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن عنده علم باستمرار العادة ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ممن عانى الفلاحة فحفت عليه تلك الحالة ، وتمسك صلى الله عليه وسلم بالقاعدة الكلية وأنه لا يؤثر ولا يغير إلا الله تعالى . والأبي يعلق على اعتذار القرطبي عن الرسول عليه السلام في ذلك بقوله : يرد أن يقال : اجتماع الذكر والأنثى سبب واضح في حصول النتيجة كما نص عليه القرآن فكيف يلغى اعتبار ما نص على اعتباره القرآن ، ثم قال : والجواب أن سببها أمر عادي مشاهد في الحيوان ، وأما في الأشجار فمستنده التجربة .

وما ينقل عن النورى في الشرح يتفق مع ما يذكره ابن خلدون حيث يقول : إنه صلى الله عليه وسلم يقول في أمور المعاش من طب وزراعة بما يقول

به الناس حوله ناتجاً عن تجارب وعادة - وهذا فيما لا وحى فيه طبعاً - .  
وتتجلى صحة هذا الرأي بالمقارنة بين ما غاب عنه صلى الله عليه وسلم من  
شئون النخل التي تعتبر بديهية لدى أهل المدينة لأنه صلى الله عليه وسلم نشأ  
في بلد غير ذي زرع - مكة - ولم يكن لأهلها علم بحال النخيل وما يصلحه  
وما يفسده من جهة وبين تمام خبرته صلى الله عليه وسلم ببعض نبات جبال  
مكة وصحاريها مما يعلمه رعاة الغنم من جهة أخرى . فقد أخرج البخاري في  
صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجني  
الكباش فقال صلى الله عليه وسلم عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه ، قالوا :  
أكنت ترعى الغنم ؟ قال : وهل من نبي إلا وقد رعاها <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

ومثال آخر لما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صورة تفضيل الترك

[ ١ ] قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث : الكباش بفتح الكاف والباء آخره  
مثلثة هو النضج من ثمر الأراك ليس له عجم ، وإنما قال له أصحابه : أ كنت ترعى الغنم ؟  
لأن في قوله لهم : عليكم بالأسود منه دلالة على تمييزه بين أنواعه . والذي يميز بين أنواع  
ثمر الأراك غالباً من يلزم رعى الغنم على ما أفوه ، لأن راعيها كثيراً ما يجوس خلال  
الأشجار لا ابتغاء المرعى منها ، والمتردد على الشيء يكون خبيراً به .

ثم قال الحافظ مستطرداً : والحكمة في رعى الأنبياء الغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع  
وتعتاد قلوبهم الحلوة ويتدفقوا من سياستها إلى سياسة الأمم وقيادتهم برفق إلى ما فيه  
صلاحهم .

على الفعل ما يرويه البخاري ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة عن أيتهما دخل عليها فلتقل له أكلت مغاير<sup>(۱)</sup> ؟ إني أجد منك ريح مغاير ! . قال : لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحدا ! فنزلت : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ<sup>(۲)</sup> » .

۱ - فهو عليه السلام رأى أن لا يعود لشرب العسل ظناً منه أن رائحته

كريهة غير مقبولة .

[ ۱ ] المغاير بالعين المعجمة والفاء بعدها ياء ثم راء جمع مغفور ، صمغ حلوه رائحة كريهة وكان صلى الله عليه وسلم يكره الرائحة الكريهة . قال في النهاية : المغاير شيء ينضجه شجر العرفط ، حلوه رائحة كريهة منكورة . والعرفط شجر الطلع وله صمغ كريه الرائحة . فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه .

[ ۲ ] معنى قوله تعالى في الآية الكريمة « لم تحرم » لم تمتنع ، و « ما أحل الله » العسل . والاستفهام ليس على حقيقته ، بل هو عتاب على الامتناع عن الحلال مع اعتقاد حله مرضاة لبعض أزواجه ، لا أنه صلى الله عليه وسلم اعتقد تحريم الحلال - حاشاه صلى الله عليه وسلم - .

٢ - لكن الله جل شأنه لم يقره على ما رأى بل عاتبه عليه بقول سبحانه : « لِمَ نَحْرَمُ مَا أَحَلَّ لَكَ ؟ » .

\*\*\*

### ما برد من اجتهاده في صورة النهي العام

يروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله حرم مكة لا يعضد شجرها »<sup>(١)</sup> . فقال العباس يارسول الله ! إلا الإذخر لصناعتنا وقبورنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر »<sup>(٢)</sup> . وفي رواية أخرى : وهذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض وهو حرام بجمرة الله إلى يوم القيامة ، وأنه لا يحل فيه القتال لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بجمرة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة . . . الخ . . . » ، فقال العباس : يارسول الله ! إلا الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر » . وفي رواية : قال العباس : « يارسول الله ! : إن أهل مكة لا صبر لهم على الإذخر ، لقينهم وليوتهم .

[١] أى لا يقطع .

[٢] الإذخر نبت معروف عند أهل مكة طيب الرائحة له أصل مندفن وقضبانته دقاق ، ينبت فى السهل والحزن ، وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الحشب ويسددون به الخلل بين اللبناى فى القبور ويستعملون فى الوقود ، ولهذا قال العباس : فإنه لقينهم وهو الحداد أوكل ذى صناعة يمالجها بنفسه . ويكثر أن يكون ذلك بواسطة النار .

والقرافي - في تنقيح الفصول - يعلق على هذا الحديث بقوله : فهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لما بين له العباس الحاجة إلى الإذخر أباحه بالاجتهاد للمصلحة .

والحافظ يقول : إن هذا يدل على أن الاستثناء في كلام العباس لم يرد به أن يكون هو المستثنى ، وإنما أراد به أن يلقن النبي الاستثناء .

ويقول الطبري : سأل العباس أن يستثنى بعد أن علم أن المحرم هو الله لأنه احتمال عنده أن يكون المراد بتحريم مكة تحريم القتال دون ما ذكر من تحريم عضد الشجر فإنه من تحريم الرسول باجتهاده فسأل أن يسأله استثناء « الإذخر » .

١ - فالرسول عليه السلام حرم باجتهاده في صيغة العموم قطع « الإذخر » .

٢ - ثم عدل عن تحريمه إلى إباحته عندما تكشفت له الحاجة إليه . وهذا ما يفيد شرح الطبري والقرافي .

## ما بداهه اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المنافقين

قال ابن كثير: قال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي<sup>(١)</sup> إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض، فلما دخل عليه قال له صلى الله عليه وسلم: «أهلك حب يهود». قال: يا رسول الله! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤذني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه (إذا مات) فأعطاه إياه.

قال ابن كثير: فإذا صحت هذه الرواية دلت على أنه صلى الله عليه وسلم استغفر له وهو حي، فأنزل الله - وعبد الله حي أيضاً - : «أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»<sup>(٢)</sup>.

قال في تفسير المنار تعليقا على ذلك: والظاهر أنه كان صلى الله عليه وسلم يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو للمشركين ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(١) كان من كبار المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وكانت وفاته سنة ٩ هـ [٢] آية ٨٠ من سورة التوبة.

ويروى البخارى - ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى - عن ابن عمر أنه قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ليصلى عليه ، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه<sup>(١)</sup> ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما خيرنى الله فقال : أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، وسأزيد على السبعين » ، قال : إنه مات منافق ، قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ

[١] الذى يظهر من سياق القصة أن عمر رضى الله عنه فهم النهى من قوله تعالى : « فلن يغفر الله لهم » أو منها ومن النسوية بين الاستغفار وعدمه . قال الكرمانى : لأن الشيء الذى يستوى حصوله وعدمه يكون طلبه عبثاً ، والعبث محذور على العقلاء فضلاً على الأنبياء . وقال الألوسى : ولم ينزل بين « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وبين « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » شيء ، وما فهمه عمر من النهى فأخوذ من الآية الأولى ، أى لأنه لو كان هناك ما يفيد النهى غيرها لذكره عمر بعد المعارضة ، وكذا لما خفى عليه صلى الله عليه وسلم . ونص عبارة الألوسى عند قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » :

وظاهر هذين الجزأين أنه لم ينزل بين « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وقوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » شيء ينفع عمر رضى الله عنه وإلا لذكره . والظاهر أن مراده بالنهى فى الجزء الأول ما فهمه من الآية الأولى ، لا ما يفهم كما قيل من قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » لعدم مطابقة الجواب حيثئذ . ثم قالوا : وإنما نهى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ولم ينه عن إعطاء القميص مظنة الإخلال بالكرم .

أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ<sup>(١)</sup>» .

والبخارى يروى أيضاً من طريق آخر عن ابن عباس قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : لما توفى عبد الله بن أبى دعى صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت : يا رسول الله ! أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا : كذا ، وكذا<sup>(٢)</sup> ؟ أعدد عليه قوله ! فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : « آخر عنى يا عمر » ، فلما أكرت عليه قال : « إني خيرت فاخترت » ... إلى أن قال : فصلى عليه صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » .

قال ابن المنير : وإنما قال ذلك عمر حرصاً على النبي صلى الله عليه وسلم ومشورة لا إلزاماً ، وله عهدٌ بذلك .

[١] آية ٨٤ من سورة التوبة .

[٢] أى القائل فى غزوة بنى المصطلق - وكانت سنة ست - : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، والقائل : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » . وروى قتادة عند تفسير قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ... » - آية ٧٤ من سورة التوبة - قال : نزلت فى عبد الله بن أبى ، وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى (مكى) وأنصارى ، فعلا الجهنى على الأنصارى . فقال عبد الله بن أبى للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : ممن كليك يأكلك - وسيأتى تفصيل هذه القصة فى ص ١٢٢ من هذا الكتاب .

وقال الحافظ ابن حجر : واستشكل الداودي تبسمه صلى الله عليه وسلم عند الجنائز ، وأجيب بأنه عبر عن طلاقة وجهه بالتبسم ، وإنما فعل ذلك تأنيساً لعمر ، وتطيباً لقلبه كالمعتذر عن ترك قبول كلامه ومشورته :

- ١ — فالرسول عليه السلام عندما طلب منه عبد الله بن أبي - وهو رأس المنافقين كما يقولون - أن يستغفر له استغفر له اجتهداً منه ودعا ربه العفو عنه ،
- ٢ — لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه وبالتالي لم يستجب لدعائه ، كما جاء في كتابه الكريم : « أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

فلو كان استغفار الرسول عليه السلام لعبد الله بن أبي عن وحى ولم يكن عن رأى اجتهدى منه لما نفي سبحانه وتعالى - هنا في هذه الآية الكريمة - قبوله وأكد ذلك بعدم وقوعه فيما بعد أيضاً .

\*\*\*

ومن اطلع على هذه الروايات التي دونت في كل تواليف الحديث ( وفي مقدمتها البخارى ومسلم ) يعرف أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد فاستغفر لبعض المنافقين - واجتهد فصلى عليه - فعاتبه الله على ذلك ، بل ربما يسترسل في

تخرىجها فيرى أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد فوق ذلك في فهم القرآن وأن فهم غيره كان هو الصواب .

ولما كان هذا أمراً خطيراً رأينا - من باب الاستطراد - أن نورد هنا كل ما اتصل بهذا الموضوع من القرآن والسنة ونعرضه في صعيد واحد علنا نصل منه إلى شيء تطمئن إليه النفس فنقول وبالله التوفيق :

قد يكر على ما يفهم من دعائه صلى الله عليه وسلم وصلاته على المنافقين أمور :

١ - منها أن البخارى ومسلم وأحمد وابن أبى شيبة والنسائى وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل وآخرون ، يروون عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال صلى الله عليه وسلم : أى عم ! ، قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب اترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، وأبو جهل وعبد الله يماودانه بتلك المقالة ، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت الآية الكريمة : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ  
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا  
عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ  
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١) .

وروى الطبري - في سبب نزول الآية - عن عمرو بن دينار قال : قال  
النبي صلى الله عليه وسلم : « استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر  
لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي » ، فقال أصحابه : لنستغفرن لأبائنا كما  
استغفر نبينا لعمه ، فنزلت الآية : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... » .

فهذا الحديث الصحيح يدل أولاً على أنه صلى الله عليه وسلم سبق له أن  
اجتهد واستغفر لبعض الكفار ، ونهاه الله ، إذ موت أبي طالب كان بمكة قبل  
الهجرة بثلاث سنين وموت عبد الله بن أبي ابن سلول كان في ذي القعدة  
سنة تسع .

٢ - ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم في سورة المتحنة - سنة  
ست - ما يوجب على المؤمن التبرأ من عدو الله ، فضلاً عن الاستغفاره ، وضرب  
لهم مثلاً أباهم إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه وأنهم قدوتهم في كل شيء .

إلا في وعده أباه بالاستغفار ، أى فلا تقتدوا به في ذلك فقال تعالى :  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ  
بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ... إلى قوله : قَدْ كَانَ لَكُمْ  
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ  
وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ  
وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ  
لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

٣— ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم في سورة النساء - سنة ست - :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ  
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا <sup>(١)</sup> » . وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ  
يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ  
ضَلَالًا بَعِيدًا <sup>(٢)</sup> » .

٤ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك في عبد الله بن أبي

ابن سلول هذا ومن معه سورة « المنافقين » - وكان نزولها بعد غزوة بني المصطلق  
التي كانت في شعبان سنة ست - وفي هذه السورة ما يفيد أن الله طبع على قلب

[١] آية ٤٨ من سورة النساء .

[٢] آية ١١٦ من السورة السابقة .

ابن أبي ، وأنه لا يؤمن ولا ينفع له استغفار . قال تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَكَاذِبُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا<sup>(١)</sup> فَطَمَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَمْهُمْ . لَا يَفْقَهُونَ ... إلى أن قال : هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا يُؤْفَكُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَنْ نَرْجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَإِلَيْهِ نَرْجِعُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

والبخارى فى سبب نزول هذه السورة يروى عدة أحاديث وزعمها على

سبعة أبواب ، وكلها تدور حول موقف قبيح خنزٍ لعبد الله بن أبى ابن سلول :

[١] آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من دخل فى الإسلام ، ثم كفروا ظهر كفرهم وتبين من أقوالهم وأفعالهم أو المعنى : ثم أصروا على الكفر . و « ثم » للبعد ما بين المنزلتين . وإذا كان القائل هو عبد الله بن أبى فكيف جمع « الضمائر » ؟  
 قيل : من باب بنى تميم قتلوا فلاناً ، والقائل واحد منهم - لاسيما وهم على رأى واحد -

فنها : عن زيد بن أرقم قال : كنت في غزاة<sup>(١)</sup> فسمعت عبد الله بن أبي يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله » ، « ولو رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، فذكرت ذلك لعمي<sup>(٢)</sup> ، فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني ، فحدثته ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذبني رسول الله وصدقه ، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط ، فجلست في البيت ، فقال لي عمي : ما أردت

[١] هي غزوة بني المصطلق ، وكانت في شعبان سنة ست . فقد روى البخارى في باب قوله تعالى : « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » عن جابر بن عبد الله قال : كنا في غزاة فكسع - أى ضرب عجزه بقدمه - رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ! وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ! فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال دعوى جاهلية ؟ » ، قالوا يارسول الله ! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منتنة » ، فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال : فملوها ! أما والله إن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه فأنكر ... إلى أن قال في الحديث : وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . وفي رواية للبخارى أيضاً : إن عمر قال عند ذلك : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث : هذا مما يؤيد تقدم القصة على « تبوك » ، ويوضح وهم من قال إن تلك الغزاة كانت « تبوك » ، لأن المهاجرين حين « تبوك » كانوا كثيرين جداً ، وقد انضفت إليهم مسلمة الفتح في غزوة « تبوك » فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار ، وقد سمي ابن إسحاق والإسماعيلي وعروة هذه الغزاة بأنها « بنى المصطلق » ، وهذا هو الذى عليه أهل المغازى .

[٢] قال الحافظ ابن حجر : أراد بسمه هنا « سعد بن عباد » ، وليس هو عمه على الحقيقة ، وإنما هو سيد قومه - الخزرج - .

إلى أن كذبتك<sup>(١)</sup> رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك ، فأنزل الله عز وجل :  
« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ . . . الْآيَةَ » فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقراها  
فقال : « إن الله قد صدقك يا زيد »<sup>(٢)</sup> - وفي رواية فرجعت إلى المنزل  
فتمت مخافة أن يرانى الناس فيقولوا : كذبت .

ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم من سورة التوبة في أثناء رجوعه  
من غزوة « تبوك » ما فضح المنافقين سواء منهم من كان معه في السفر أم من  
تخلف بالمدينة بأعذار كاذبة كعبد الله بن أبي ومَن على شاكلته كأصحاب  
مسجد الضرار الذى كان سيصلى فيه عقب رجوعه فنهاه الله وفضح من بناه  
منهم من رموس النفاق :

فما نزل في عبد الله بن أبي في أثناء الطريق : « سَيَخْلِفُونَ لَكُمْ إِذَا  
انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُتْعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَالَّهُمُ بِهِمْ  
جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا  
عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْمَاسِيَةِ »<sup>(٣)</sup> .

[١] قال الكرمانى : أى ما قصدت متبيهاً إليه ، والمعنى ما حملك حتى صرت إلى أن  
كذبتك صلى الله عليه وسلم .

[٢] إذا تأملت سياق أحاديث سورة المنافقين يتبين لك جلياً أن نزول السورة وما  
يتعلق بعبد الله بن أبي كان عقب الغزوة مباشرة ، إذ يقول الراوي : لى مكثت فى البيت  
خوف الحزى حتى نزلت السورة . ومن هنا تعلم ضعف جواب أن سورة المنافقين نزلت بعد  
« تبوك » .

[٣] آيتا ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

قال البغوي : قال مقاتل : نزلت - هذه الآية - في عبد الله بن أبي ابن سلول ، حانف له صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه أبداً بعدها وطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه .

من كل هذا يتبين :

أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الاستغفار للمشركين قبل الاستغفار لابن سلول بمدة ثنتي عشرة سنة . ولا يجوز أن يخالف صلى الله عليه وسلم نهى الله طول هذه المدة ؛ بل ولا طريقة عين .

وأجاب الواحدى عن ذلك بأن استغفاره صلى الله عليه وسلم لأبي طالب وإن كان قبل الهجرة لكن النهى عنه لم يرد إلا في سنة تسع .

وعليه فلا يراد بقوله في حديث أبي طالب « فنزلت : ما كان للنبي .. » أن النزول كان عقب الاستغفار ؛ بل يراد أن ذلك سبب النزول . فـ « الفاء » فيه للسببية لا للتمقيب . قال الألوسى : واعتمد على هذا التوجيه كثير من جلة العلماء - وهو توجيه جيد - .

وأنت ترى أن هذا الجواب صريح في أنه صلى الله عليه وسلم مكث يستغفر لأبي طالب خطأ زهاء اثنتي عشرة سنة . فهل يجوز أن يتركه الله على خطئه كل هذه المدة ؟ .

وأجاب بعضهم : بأنه لا مانع أن يكون الرسول علم بالنهي عن الاستغفار للمشركين ، ولكنه فهم أن ابن سلول ليس كافراً صريحاً ، فاستغفر له اجتهداً منه . ولما رُدَّ عليه : بأنه كيف يصلى عليه بعد نهيه عن الاستغفار له ، وبعد ما جاء في تذييل آية النهي عن الاستغفار « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ؟ . أجاب بأن هذا التذييل بعد الحادث ، لا متصلاً بالآية .

وأنت ترى ما في هذا الجواب !! .

والإشكال الذي لم يوجد له جواب صحيح هو أن النبي صلى الله عليه وسلم سبق أن نهى عن الاستغفار لعبد الله ابن أبي نفسه قبل موته بنحو عامين كما جاء في سورة المناقين - كما تقدم - . وأيضاً ما قاله الزمخشري : من أنه كيف يخفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن المراد بـ « السبعين » أن الاستغفار ولو كثر لا يجدي ، لا سيما وقد جاء بعده قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... الآية » ، فبين الصارف عن المغفرة لهم ؟ .

ولذا قال الحافظ ابن حجر : واستشكل فهم « التخيير » - استغفروا لهم أو لا تستغفروا لهم - من الآية حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن في صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه : قال ابن المنير : مفهوم الآية زلت فيه

الأقدام، حتى أنكر القاضي أبو بكر الباقلاني صحة هذا الحديث ، وقال : لا يجوز أن يقبل هذا ، ولا يصح أن الرسول قاله . وصيغة ما قاله في كتاب « التقريب » : وهذا الحديث من أخبار الآحاد التي لا يعلم ثبوتها . وقال الغزالي في كتاب « المستصفي » : « الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح . وقال ابن المنير : ليس عند أهل البيان تردد في أن التخصيص بالعدد في هذا السياق غير مراد ، فقصد المبالغة واضح ، فلذا استشكلوا قوله صلى الله عليه وسلم : « سأزيد على السبعين » مع أن حكم ما زاد عليها حكمها . ولذا قال بعض العلماء : والحق أن هذا الحديث معارض للآيتين : الآية « براءة » ، وآية « المنافقين » ...

فالذين يمتنون بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يجدوا ما يجيبون به عن هذا التعارض إلا الحكم بعدم صحة هذا الحديث ، ولو من جهة متنه . وقد تقدم كثير منهم كالقاضي أبي بكر الباقلاني والغزالي .

وأما الذين يمتنون « بالأسانيد » أكثر من عنايتهم بـ « المتون » ، وبالفتور أكثر من الأصول فقد تكلفوا أجوبة لا يقبلها منصف .

ومن الأصول المتفق عليها : أنه ليس كل ما صح سنده صح متنه ، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعي ، وأن القرآن مقدم على الحديث عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما .

## الفصل الثاني

عمد صلى الله عليه وسلم اجتهاداً

في الفصل السابق ذكرنا أمثلة من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صور قولية ، والآن نذكر أمثلة أخرى لاجتهاده عليه السلام لها الطابع العملي . وبذا تتأكد إنسانيته فيما خرج عن دائرة الرسالة والتبليغ .

وكما رأينا في الصور السابقة لاجتهاده عليه السلام من إقرار الله سبحانه وتعالى لما رأى صلى الله عليه وسلم أو عدم إقراره لذلك سنرى هنا أيضاً نفس هذا الحال مما يدل دلالة واضحة على أن الذي بدا من الرسول الكريم كان له خاصة كإنسان، ولم يصدر عنه كوحى إليه .

فن هذه الأمثلة :

- ١ - أنه صلى الله عليه وسلم صلى على عبد الله بن أبي بن سلول - باعتبار ما في الصلاة من أعمال كاستقبال القبلة ورفع اليدين عند التكبير مثلاً -<sup>(١)</sup> ،
- ٢ - وأن الله سبحانه وتعالى لم يقره على ذلك - كما تقدم - .

[١] وقد سبق الحديث ضمناً عن ذلك في الفصل السابق تحت عنوان : ما بدا من اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المناقذين ، ص ١١٤ .

\*\*\*

١ — أخذه صلى الله عليه وسلم الفداء من أسرى بدر ، إذ يروى ابن أبي شيبه والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى فقال أبو بكر ، يا رسول الله ! قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الخطب فأضرمه عليهم ناراً ، فقال العباس — وهو يسمع ما يقول — قطعت رحمك ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس : يأخذ برأى عمر ، فخرج رسول الله صلى عليه وسلم فقال : « ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجاة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم<sup>(١)</sup> ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام ، قال : إن تعدّ بهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم<sup>(٢)</sup> ، ومثلك يا عمر كمثل موسى

[١] آية ٣٦ سورة إبراهيم .

[٢] آية ١١٨ سورة المائدة .

عليه السلام، إذ قال: « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْمَذَابَ الْأَلِيمَ »<sup>(١)</sup>، ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، إذ قال: رَبُّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا<sup>(٢)</sup>، ثم قال صلى الله عليه وسلم: أنتم عالة<sup>(٣)</sup> فلا ينفلتن أحد من الأمري إلا بفداء أو ضرب عنق .

٢ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُمْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ... إِلَى قَوْلِهِ عَظِيمٌ »<sup>(٤)</sup>.

ويروي أحمد<sup>(٥)</sup> ومسلم من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب - في نفس الموضوع - قال: لما أسر الأسارى - يعني يوم بدر - قال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: « ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله! هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية، فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله

[١] آية ٨٨ - سورة يونس .

[٢] آية ٢٦ سورة نوح .

[٣] أى فقراء في حاجة إلى مال الفداء .

[٤] آيتي ٦٧ و ٦٨ سورة الأنفال وسيأتي شرحهما .

[٥] ورواية أحمد أكثر تفصيلاً .

عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال : لا والله لا أرى الذي رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكثنا فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها<sup>(١)</sup> ، فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت يا رسول الله ! أخبرني من أى شيء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تبكيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبكى للذى عرض لأصحابي من أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه صلى الله عليه وسلم - ،

فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ ... إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ »<sup>(٢)</sup> .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر - فيه أيضاً -

[١] صناديدها أى صناديد قريش وهم رؤساؤها .

[٢] وقال ابن جرير فى معنى الآية : « الأسر » فى كلام العرب معناه الحبس فالمعنى : ما كان لنبى أن يحتبس كافراً فدر عليه وصار فى يده من عبدة الأوثان للفداء أو المن ، فأنه سبحانه وتعالى يعرف نبيه أن قتل المشركين الذين أسروهم يوم بدر وفاداهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم . ومعنى « ويشخن فى الأرض » أى يعظم شأنه ويظل بأن تم له القوة والغلب فلا يكون اتخاذه الأسرى سبباً لضعفه أو قوة أعدائه . قال الواحدى : الإثخان فى كل شىء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتد عليه ، وكذلك أثخنه الجراح ، والثخانة الغلظة ، فكل شىء غليظ فهو ثخين .

قال : اختلف الناس في أسارى بدر ، فاستشار صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر ، ففاداهم ،

فأنزل الله تعالى : « لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » . وأخرج ابن جرير عن أبي زيد قال : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نُصِرَ إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب جعل لا يلقى أسيرا إلا ضرب عنقه ، وقال : يا رسول الله : ما لنا وللغنائم ؟ نحن قوم نجاهد في دين الله حتى يعبد الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك » .

\*\*\*

١ — عبوسه صلى الله عليه وسلم في وجه ابن أم مكتوم الأعمى على نحو ما ورد في قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » .

قال الحافظ ابن حجر : لم يختلف السلف في أن فاعل « عبس » هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الترمذى والحاكم وابن حبان عن عائشة قالت : نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى ، قال يا رسول الله أرشدنى ! - وعند النبي صلى الله عليه وسلم

ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرها - فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عن ابن أم مكتوم ، ويقبل على غيره

٢- فنزلت : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى

أَوْ يَدَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْيَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ بِسَمَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » .

قال صاحب المنار<sup>(١)</sup> في ذلك : اجتهد صلى الله عليه وسلم في الإعراض

عن الأعمى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكاير قريش إلى الإسلام ، وقد لاحت له بارقة رجاء في إيمانهم بتحدثهم معه ، فعلم صلى الله عليه وسلم أن إقباله على الأعمى قد ينفهم ويقطع عليه طريق دعوته ، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله في البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم وأوساطهم ، دون الأكاير المجرمين المترفين الذين يرون في اتباع غيرهم ضمة بذهاب رياستهم .

وقال الألوسى أيضاً في تفسير سورة ( عبس ) :

[١] عند شرح قوله تعالى « عفا الله عنك » أذنت لهم .

جاء ابن أم مكتوم<sup>(١)</sup> إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام وجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال يا رسول الله ! : علمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، ولم يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالفوم ، فكره صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ... الخ » . فكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول : هل لك من حاجة<sup>(٢)</sup> ؟ .

\*\*\*

[١] وابن أم مكتوم هو ابن خال خديجة واسمه عمرو بن قيس القرشي ، وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عائكة بنت عبد الله المخزومية ، وكان أعمى وعمى بعد نور . وقيل ولد أعمى ولذا قيل لأمه أم مكتوم . وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأوائل . هاجر إلى المدينة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إليها . والمشهور أن اسمه عبد الله وسبب خفاء اسمه هو شهرته بكنيته ( ابن أم مكتوم ) . قال الزرقاني على المواهب اللدنية جزء ٣ ص ٣٧٠ وعمرو ابن أم مكتوم نسب لأمه . وزعم بعضهم أنه ولد أعمى فكنت أمه به لاكتام نور بصره ( أي حبسه ) والمعروف أنه عمى بعد مدة من ولادته . وظاهر كلام أهل اللغة أن التكنية بأم مكتوم لا علاقة لها بمعنى ابنها ، قال في المصباح المنير في مادة كتم ( وحديث مكتوم . وبه كنية المرأة ثقيل أم مكتوم ) .

[٢] قال الألوسي بعد ذلك : عبر في ( عبس ) بضمير التنية ثم خاطب في ( وما يدريك ) قيل إجلالاً له صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه العبوس غيره - صلى الله عليه وسلم - لأن من شأنه ألا يصدر عنه مثل ذلك ، ثم خاطبه إنساناً بعد إحشاش ، وإقبالاً =

سوقه صلى الله عليه وسلم الهدى ، وتمنيه أن لم يكن ساقه

١— روى البخارى عن جابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم أهل وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدى غير النبي صلى الله عليه وسلم وطلحة ابن أبي رباح ، وفي رواية أحمد ومسلم : غير النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وذى اليسار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لأصحابه أن يجملوها عمرة . يطوفوا ثم يقصروا ويحلقوا إلا من معه الهدى . فقالوا أنطلق إلى

منى وذكر أحدنا يقطر<sup>(١)</sup> ؟ : فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم

٢— فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ولولا أن

معى الهدى لأحلت » .

== بعد إعراض . ثم قال أيضاً وقيل إن الغيبة أو لا والخطاب ثانياً لزيادة الإنكار وذلك كمن يشكو إلى الناس رجلاً ثم يقبل على هذا الرجل إذا اشتدت النكاية مواجهها باللوم والإزام الحجة . وفي ذكر ابن أم مكتوم ( بالأعمى ) دون ذكر اسمه لإشعار بعذره في الإقدام على قطع الكلام ، ولأنه وصف يناسب الإقبال عليه لا الإعراض عنه ، ففيه لوم آخر . « كلا » قال النسفي معناها ردع وزجر أى لا تعد لمثل ذلك ( لأنها ) أى هذه الآيات وما نزلت بسببه ( تذكرة ) أى موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

روى ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قضى نجواه مع المشركين وذهب إلى أهله نزلت الآيات . وفي بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم ما عبس بعد ذلك في وجه فقير ، ولا تصدى لغنى لغناه . فتأدب الناس بعد ذلك أدباً حسناً .

[١] استبشعوا أن يتحللوا التحلل الذى يبيع لهم النساء وغيرها .

وروى أحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه فأحرمننا بالحج ، فلما قدمنا مكة قال : « اجملوا حجكم عمرة » ، قال : فقال الناس يا رسول الله ! : قد أحرمننا بالحج فكيف نجعلها عمرة ؟ . قال : « انظروا ! ما أمركم به فافعلوا » فردوا عليه القول ، ثم زادوا : أندخل البيت ومذا كبرنا تقطر منيا ؟ . فغضب صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلق حتى دخل على عائشة وهو غضبان ، فرأت الغضب في وجهه ، فقالت : من أغضبك أغضبه الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « ومالي لا أغضب وأنا أمر بالأمر فلا أتبع » .

وقد صحح في الأحاديث أنهم بعد ذلك فعلوا ما أمرهم صلى الله عليه وسلم به وتحلل كل من لم يكن معه هدى .

\*\*\*

دخوله صلى الله عليه وسلم في جوف الكعبة ثم تأمله لذلك (١)

١ - روى أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي وهو قرير العين ، طيب النفس ،

٢ - ثم رجع إلى وهو حزين القلب فقلت يا رسول الله ! : خرجت من

عندي وأنت كذا وكذا ، فقال : « إني دخلت الكعبة ووددت أني لم أكن فعلت ، إني أخاف أن أكون قد أنعبت أمتي من بعدى » .

\*\*\*

إقراره صلى الله عليه وسلم كتابة شروط الصلح مع قائدى غطفان يوم الخندق<sup>(١)</sup> .

روى ابن كثير فى تاريخه<sup>(٢)</sup> ، قال ابن إسحاق : لما اشتد البلاء على الناس بالحصار الذى مكث نحو شهر ، بعث صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرمى وهما قائدا غطفان<sup>(٣)</sup> وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح<sup>(٤)</sup> فلما أراد صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك . بعث إلى السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه . فقالا يا رسول الله ! : أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصفه لنا ؟

١ - فقال صلى الله عليه وسلم : « بل شئى أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك

[١] وإذا نظر إلى ما حصل منه صلى الله عليه وسلم من الكلام صح وضع هذا البحث فى فصل اجتهاده صلى الله عليه وسلم بالقول المتقدم ذكره .

[٢] جزء ٤ ص ١٠٤ .

[٣] من القبائل الكبيرة التى كانت تقيم فى منازلها شرقى المدينة على مسافة منها .

[٤] أى إمضاء الشرط وتوقيعه .

إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم<sup>(١)</sup> من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما » . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ! : قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا قرّى أو بيما ، أخين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ ، ما لنا بهذا من حاجة ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ،

٢ — فقال صلى الله عليه وسلم : « أنت وذاك » . فتناول سعد الصحيفة فحما ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا أنفسهم .

[١] المصباح : كالبه مكابة أظهر عداوته ومناصبته العداة وجاهره به .

## الفصل الثالث

في موقف مما اجتهد فيه أصحابه صلى الله عليه وسلم في عصره  
في غيبته وفي حضوره

ما حصل يوم بدر :

١ - قال ابن كثير وابن الأثير : قال ابن إسحاق : خرج صلى الله عليه وسلم يوم بدر يبادر قريشاً إلى الماء . ونزل المسلمون على أول ماء من بدر ، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ! : رأيت هذا المنزل ؟ : أمئزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأى والمكيدة ؟ قال : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » ، قال يا رسول الله ! : فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور<sup>(١)</sup> ما وراءه من القلوب ، ثم نبني عليه

[١] نذهب الماء من كل قلب غير الذي نزلنا عنده ، والقلب البئر يذكر وقد يؤنث .  
جمعه قلب بضم أوله وثانيه كمنذير ونذر .

حوضاً ففعلأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال له : « لقد أشرت بالرأى » ، وفعل كما قال .

٢ — ثم إن سعد بن معاذ قال يا رسول الله ! ألا نبني لك عرشاً تكون فيه ونعدّ عندك ركائبك ؟ ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جاست على ركائبك فلاحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ، ما نحن أشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، فأثنى عليه صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ، وأمر ببناء العريش فبنى له .

\*\*\*

اجتهاد أبي بكر رضي الله عنه في حضرة صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين :

روى البخاري عن أبي قتادة قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة<sup>(١)</sup> ، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا<sup>(٢)</sup> رجلاً من المسلمين فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فتقطعت الدرع ، وأقبل على فضمني ضمةً وجدت منها ريح الموت ،

[١] جولة : حركة فيها اختلاف . وفي الرواية التي بعدها أن بعضهم انهزموا

[٢] علا : أي ظهر وفي الرواية التي بعدها ما يوضحه .

ثم أدركه الموت فأرسلني ، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت ما بال الناس <sup>(١)</sup> ؟ ، قال : أمرُ الله عز وجل ، ثم رجعوا وجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه » ، فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، فقمت فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست ، قال : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، فقمت فقال : « مَالِكُ يَا أَبَا قَتَادَةَ ؟ » فأخبرته ، فقال رجل : صدق ، وسلبه عندي ، فأرضه منه <sup>(٢)</sup> ، فقال أبو بكر : لا ها الله إذا لا يَعْمِدُ <sup>(٣)</sup> إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فيعطيك سلبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق . فأعطه » فأعطانيه .

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي قتادة أيضاً قال . لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين وآخر من المشركين يختله <sup>(٤)</sup> من ورائه ليقتله : فأسرعت إلى الذي يختله فرفع يده ليضربني ، وأضرب يده فقطعتهما ، ثم أخذني فضمني ضمّاً شديداً حتى تخوفت ثم بك

[١] يريد بالناس المسلمين عند انهزامهم كما سيأتي في الرواية الأخرى .

[٢] من هنا للبدل أي أعطه شيئاً من عندك يارسول الله بدلا من هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، لذلك أسرع أبو بكر في الرد على هذا السائل وأشار بإعطاء السلب للقاتل .

[٣] لا يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل كأنه أسد فيعطيك حقه بغير طيبة من نفسه .

[٤] يختله : أي يريد أن يأخذه على غرة .

فتحليل<sup>(١)</sup> ودفعته ثم قتله ، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم ، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس فقلت له : ما شأن الناس ؟ قال : أمر الله ، ثم تراجع الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أقام بينة على قتيل قتله فله سلبه » فقامت لأتمس بينة على قتيلي ، فلم أر أحداً يشهد لي ، فجلست ، ثم بدا لي ، فذكرت أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل من جلسائه : سلاح هذا القتل الذي يذكر عندي ، فأرضه منه ، فقال أبو بكر : كلاً لا يعطه أصيبغ<sup>(٢)</sup> من قريش ، ويدع أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأداه إلى .

\*\*\*

أقراره صلى الله عليه وسلم صدر في بالفاتحة على أخذ الأجر :

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب

[١] خارت قواه .

[٢] قال ابن حجر : الأصيبغ : نوع من الطير ، أو شبهه بنبات ضعيف يقال له الصبغاء إذا طلع من الأرض يكون أول ما يلي الشمس منه أصفر . وفي رواية أضيغ بالضاد والعين تصغير الضبع على غير قياس . كأنه لما عظم أبا قتادة بأنه أسد صر خصمه وشبهه بالضبع لضعف افتراسه وعجزه .

فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلذغ سيد ذلك الحى فسعوا له بكل شيء ،  
لا ينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون  
عند بعضهم شيء ؟ فأتوهم فقالوا : إن سيدنا لذغ ، فهل عند أحدكم شيء ؟  
فقال بعضهم : نعم ، ولكن لا نفعل حتى تجعلوا لنا جملاً ، فصالحوهم على  
قطيع من الغنم . فانطلق يقرأ عليه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فكأنما  
أنشط<sup>(١)</sup> من عقال ، فانطلق يمشى وما به علة ، فَأَوْفَوْهُمْ جملهم . فقال  
بعضهم : اقساموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى النبی صلى الله عليه وسلم  
فذكر له الذى كان فنظر ما يأمرنا ، فقدموا ، فذكروا ذلك له صلى الله  
عليه وسلم ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » ثم قال : « قد أصبتم ، اقساموا  
واضربوا الى معكم سهما » وضحك صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ فى روايةٍ إسماعيل بن عطاء بن رباح ثلاثين شاة ، وكان عدد الركب  
ثلاثين رجلاً . وقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى فاتحة الكتاب ، وقوله : « وَمَا  
يُدْرِيكَ » زاد فى رواية فقلت يارسول الله : شيء ألقى فى روعى . قال الحافظ

[١] قال ابن الأثير فى النهاية أنشط من عقال أى حل وكثيراً ما يجيء فى الرواية كأنما  
نشط من عقال وليس بصحيح . قال فى المصباح : أنشطت البعير من عناله : أمالفته والأنشطة  
بضم الهمزة ربطه دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت ونشط فى عمله من باب تعب  
خف وأسرع .

وهو ظاهر في أنه لم يكن عنده علم متقدم بمشروعية الرقي بالقائمة ، أى فيكون قد فعل ذلك اجتهاداً منه .

\*\*\*

لم يفر صلى الله عليه وسلم منه صلى بصلاته في قيامه رمضان فوف  
سنة الفرضه على أمة :

روى البخارى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات  
ليلة في المسجد<sup>(١)</sup> ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ،  
ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة<sup>(٢)</sup> فلم يخرج إليهم صلى الله عليه وسلم .  
فلما أصبح قال : « قد رأيت الذى صنعتم ، ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا  
أنى خشيت أن تفرض<sup>(٣)</sup> عليكم وذلك في رمضان . . » انتهى الحديث .

[١] وفي رواية كان يحتجر حصيراً بالليل يصلى عليه . ويبسطه بالنهار فيجلس عليه ، قال  
النوى : معنى يحتجر : يحوط موضعاً من المسجد بحصير يستتره ليصلى فيه ولا يرى بين يديه  
مار ليستوفى خشوعه ويتفرغ قلبه .

[٢] وفي رواية : فصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من  
الليلة الثالثة فخرج فصلوا بصلاته . فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله .

(٣) وفي رواية : لكنى خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها ، قال  
الفرطى : خشى صلى الله عليه وسلم أن يظن أحد من الأمة من مداومته عليها الوجوب .  
كما إذا ظن المجتهد حل شيء أو تحريمه فإنه يجب عليه العمل به . وقال ابن بطال : يحتمل =

فهذا يدل على أنهم صلوا وراءه صلى الله عليه وسلم بدون إذن منه بل  
باجتهاد منهم ، ولم يقرهم على ذلك خوف أن يفرض عليهم قيام رمضان وغيره .

\*\*\*

أن يكون هذا القول صدر منه صلى الله عليه لما كان قيام الليل فرضاً عليه دون أمته فخشي  
إن خرج إليهم والتزموا معه قيام الليل أن يسوى الله بينه وبينهم في حكمه لأن الأصل في  
الشرع المساواة بين النبي وبين أمته ، وقد استشكل الخطابي أصل هذه الحشية منه صلى الله  
عليه وسلم مع ما ثبت في حديث الإسراء من أن الله تعالى قال : هن خمس وهن خمسون  
لا يبدل القول لدى ، فإذا أمن التبديل فكيف يقع الخوف من الزيادة ، وقد نقل الحافظ  
ابن حجر أجوبة كثيرة لم يرضها ، ثم قال وقد فتح الباري بثلاثة أجوبة أخرى أحدها :  
يحتمل أن يكون الخوف افتراض قيام الليل بمعنى جعل التهجيد بالمسجد جماعة شوطاً في صحة  
المتنقل بالليل ويومئ إليه قوله في حديث زيد بن ثابت ( حتى خشيت أن يكتب عليكم ولو  
كتب عليكم ما قتم به فصلوا أيها الناس في بيوتكم ) فمنهم من النجم في المسجد إشفاقاً  
عليهم من اشتراطه .

ثانيها : يحتمل أن يكون الخوف افتراض قيام الليل على الكفاية لا على الأعيان فلا  
يكون زائداً على الخمس المفروضة كل يوم على كل مكلف . بل هو نظير ما ذهب إليه بعض  
العلماء في وجوب صلاة العبد .

وثالثها : يحتمل أن يكون الخوف افتراض قيام رمضان خاصة فقد وقع في حديث الباب  
أن ذلك كان في رمضان .

وفي رواية خشيت أن يفرض عليكم قيام هذا الشهر . وقيام رمضان لا يتكرر كل  
يوم فلا يكون قدراً زائداً على الخمس .

سكونه صلى الله عليه وسلم على حلف عمر رضى الله عنه على أنه

« ابن الصياد » هو الدجال

روى البخارى<sup>(١)</sup> ومسلم عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن الصياد هو الدجال ، قلت : تحلف بالله ؟ قال : إني سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكره النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : صحبني ابن الصياد إلى مكة فقال لي : ماذا لقيت من الناس ؟ يزعمون أني الدجال ، أأست سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه لا يولد له ؟ » قلت : بلى ، قال : فإنه قد ولد لي ، قال : أولست سمعته يقول : لا يدخل المدينة ولا مكة ! قلت بلى ، قال : فقد ولدت بالمدينة ، وها أنا ذا أريد مكة ، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الدجال يهودى ! » وقد أسلمت .

---

[ ١ ] فتح البارى جزء ١٣ كتاب الاعتصام باب من رأى ترك المنكر من النبي صلى الله عليه وسلم حجة ، وفي مسلم في كتاب الفتن ج ٨ متن . أبواب ابن الصياد والدجال (١٠)

وروى مسلم عن فاطمة بنت قيس حديثاً طويلاً جاء فيه قولها : سمعت  
منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى : الصلاة جامعة! فخرجت إلى المسجد  
فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت في صف النساء اللاتي تلى  
ظهور القوم ، فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته جلس على المنبر وهو يضحك  
وقال : « جمعتم لأن تميا الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء وباع وأسلم ،  
وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال : حدثنى أنه  
ركب فى سفينة مع ثلاثين رجلاً ... إلى أن قال : ثم أرفأ<sup>(١)</sup> إلى جزيرة فى  
البحر ، فلقبتهم دابة كثيرة الشعر وقالت : أنا الجساسة ، ثم قالت : انطلقوا  
إلى هذا الرجل فى الدير ، فدخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان<sup>(٢)</sup> رأيناه قط خلقنا  
وأشدّه وثاقاً ، مجموعةٌ يدها إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا  
ما أنت ؟ قال : أخبرونى أولاً عن كذا وكذا ، وسأل كثيراً ثم قال : أخبرونى  
عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا قد خرج من مكة ونزل يثرب ، قال : أقاتله  
العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبروه أنه قد ظهر على من  
يليه من العرب وأطاعوه ، قال : ذلك خير لهم ، وإني مخبركم عنى : إني  
أنا المسيح ، وإني يوشك أن يؤذن لى فى الخروج ، فأخرج فأسير فى الأرض

[١] أرفأ : جنح .

[٢] لمانى هذه الجملة من معنى النفى صح ذكر ( قط ) لأنها لا تستعمل إلا مع النفى ، ومعنى  
الجملة ( ما رأينا مثله الخ )

فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان عليّ». قالت فاطمة بنت قيس : قال صلى الله عليه وسلم - وطعن بمخبرته<sup>(١)</sup> في المنبر - « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة ، ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس : نعم ، فإنه أعجبني حديث تميم ، إنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه ... الخ » .

قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري المتقدم ذكره : كأن جابراً لما سمع عمر يحلف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه فهم منه المطابقة . ولكن بقي أن شرط العمل بالتقرير ألا يمارضه التصريح بخلافه .

قال ابن بطال : فإن قيل ثبت في الصحيح أن عمر قال للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة ابن الصياد<sup>(٢)</sup> : دعني أضرب عنقه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله » ، فهذا صريح في أنه عليه السلام تردد في أمره ، يعني فلا يدل سكوته عن إنكاره عند حلف

[١] المخصرة ككنسة اسم لكل ما يتكأ عليه من عصا وعكاز وغيرها .

[٢] بشير إلى حديث طويل رواه مسلم جزء ٨ متن. صفحة ١٩٢ أوله : أن عمر بن الخطاب انطلق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : ولقينا ابن الصياد فقال ابن الصياد كلمة خاطئة فقال عمر بن الخطاب : فدني يا رسول الله أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم : « وإن يكنه فلن تسلط عليه ... الخ » .

عمر على أنه هو - أجيب بأن التردد كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه هو الدجال ،  
فلما أعلمه لم ينكر على عمر حلفه ، ثم قال : قال البيهقي : ليس في حديث  
جابر أكثر من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على حلف عمر ، فيحتمل أن  
يكون النبي عليه السلام كان متوقفاً في أمره ، ثم جاءه التثبت من الله تعالى  
بأنه غيره ، على ما تقتضيه قصة تميم الدارى . وبه تمسك من جزم بأن الدجال  
غير ابن الصياد .

وكان الذين يجزمون بأن ابن الصياد هو الدجال لم يسموا بقصة تميم ،  
وإلا فالجمع بينهما بعيد جداً . إذ كيف يلتم أن يكون من كان في حياته  
صلى الله عليه وسلم شبه المحتلم ويجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسلم ؟ ،  
كيف يكون شيخاً كبيراً مسجوناً في جزيرة ، ويسأل عنه عليه السلام : هل  
خرج أم لا ؟ .

قال الخطابي : اختلف السلف في أمر ابن الصياد بعد كبره : فروى أنه  
تاب من ذلك القول ومات بالمدينة ، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن  
وجهه حتى يراه الناس ، وقيل لهم : اشهدوا ! .

وقال ابن دقيق العيد : إذا أخبر بحضرة صلى الله عليه وسلم عن أمر

ليس فيه حكم شرعي ، فهل يكون سكوته صلى الله عليه وسلم دليلاً على مطابقة ما في الواقع ، كما وقع لعمر في حلفه على أن ابن الصياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ، ويستند إلى حلف عمر ؟ أم لا يدل ؟ فيه نظر . والأقرب عندي أنه لا يدل . لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ، ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة ، إلا أن يدعى مدع أنه يكفي في وجوب البيان عدم تحقق الصحة ، فيحتاج إلى دليل وهو عاجز عنه . نعم : التقرير يسوغ الحلف على ذلك على غلبة الظن ، لعدم توقف ذلك على العلم ... هـ .

وقال النووي : قال العلماء : قصة ابن الصياد مشككة ، وأمره مشتبه ، لكن لا شك أنه دجال من الدجالة . والظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه في أمره بشيء ، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال ، وكان في ابن الصياد قرائن محتملة . فلذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يقطع في أمره بشيء ، بل قال لعمر : « لا خير لك في قتله ... الحديث »<sup>(١)</sup> .

[١] بقي أنه يبعد أن تكون الصفات التي أوحى بها إليه صلى الله عليه وسلم تجتمع في فقير كابن الصياد وفي هذا المقيد في الجزيرة . وأغرب من هذا ما ذكره نعيم بن حماد شيخ البخاري في كتاب الفتن من أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه عن جماعة منهم شريح بن عبد الله . قالوا جميعاً : إن الدجال ليس بإنسان وإنما هو شيطان موثق بسبعين حلقة . قيل موثق من عهد سليمان . قال الحافظ ابن حجر بعد نقل ما تقدم : وهذا لا يمكن معه كون ابن الصياد هو الدجال ، ولعل هؤلاء الرواة مع كونهم ثقافتاً تلقوا ذلك من بعض أهل الكتاب .

ونقل صاحب المنار عن ابن الجوزى أنه قال <sup>(١)</sup> : كان صلى الله عليه وسلم يتكلم بأشياء على سبيل القياس ، وهو دليل معمول به . فكانه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضي قرن واحد ، ومن ثم قال في الدجال : « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال في حياته الشريفة عليه السلام . قال السيد رشيد <sup>(٢)</sup> - معلقاً على ذلك - : فابن الجوزى يرى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقدر في هذه المسائل تقديراً ، إذ لم يوح الله تعالى إليه بأخبارها تفصيلاً .

\*\*\*

اهتمراه عليه السلام وأصحابه فيما يكون به الاعتراف للصلاة

روى البخارى <sup>(٣)</sup> عن ابن عمر قال : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون <sup>(٤)</sup> الصلاة ليس ينادى لها ، فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال

[١] في جزء ٩ من تفسير المنار صفحة ٤٦٣ .

[٢] في صفحة ٤٨٩ من نفس الجزء ٩ .

[٣] في الجزء الثانى من كتاب الأذان ، من فتح البارى على البخارى .

[٤] أى يطلبون حينها ويتفرسون في البحث عنه .

بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقاً مثل قرن<sup>(١)</sup> اليهود ، فقال عمر : أولا تبشون رجلا ينادى بالصلاة ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا بلال ! قم فناد بالصلاة » .

وفي رواية عند ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار الناس فيما يجمعهم إلى الصلاة ، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى .

وفي رواية أخرى للبخارى عن أنس وعن أبي الشيخ عن خالد - واللفظ خالد - قال : فقالوا : لو اتخذنا ناقوساً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ذاك للنصارى » ، فقالوا لو اتخذنا بوقاً ؟ فقال : « ذاك لليهود » ، فقالوا : لو رفعنا نارا ؟ فقال : « ذاك للمجوس » .

وصح عند الترمذى وأبى داود وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه للصلاة كيف يجمع الناس لها ؟ فقال بعضهم : انصب راية عند حضور وقت الصلاة ، وذكر بعضهم البوق وبعضهم الناقوس ، فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهمم ، فرأى رؤيا قصها ، وقال : طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده : فقلت يا عبد الله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟

[١] شيء ينفخ فيه مثل المعروف الآن ( بالنفير ) .

قلت ندعو به للصلاة ، فقال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ قلت له :  
بلى ! قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر : الله أكبر :  
أشهد أن لا إله إلا الله . . . إلى آخر الأذان ، فلما أصبحت أتيت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت ، . فقال : « إنها رؤيا حق إن شاء الله  
فقم مع بلال فأتق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فإنه أندى صوتاً منك » ، فجعلت  
ألقيه عليه ويؤذن به ، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجر رداءه  
فقال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال  
صلى الله عليه وسلم : « فله الحمد » . قال عياض : فقول عمر في الرواية الأولى :  
ألا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « يا بلال قم فناد »  
المراد به الإعلام المحض بحضور وقت الصلاة ، لا خصوص الأذان المشروع  
آخرأ .

وبذلك يجمع بين رواية البخارى ورواية الترمذى ومن معه . قال السهيلي :  
والحكمة في ابتداء شرع الأذان على لسان غيره صلى الله عليه وسلم التقويه  
بما لو قدره على لسان غيره صلى الله عليه وسلم ليكون أفخم لشأنه .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث والتعليق عليه : وقد نص  
الأصوليون على أنه يجوز له صلى الله عليه وسلم الاجتهاد في الأحكام ، والله يقره  
على ما يشاء :

قال ابن العربي : وفي الحديث دليل على مراعاة المصالح والعمل بها ، وذلك أنه لما شق عليهم التبكير للصلاة فتفتوتهم أشغالهم ، والتأخير فيفتوتهم وقت الصلاة ، نظروا فيما يحفظ لهم أداء الصلاة دون تعطيل أعمالهم .  
واختلف في قصة الأذان هذه : هل كانت في السنة الأولى من الهجرة ، أو الثانية ؟ .

\*\*\*

اجتهاده مع أصحابه صلى الله عليه وسلم فيما يجلس عليه عند خطبة الجمعة

روى البخارى <sup>(١)</sup> عن سهل بن سعد ، وقد سئل : من أى شيء المنبر ؟ فقال : ما بقى بالناس أعلم منى ، هو من أثل الغابة <sup>(٢)</sup> ، عمله فلان مولى فلانة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية للبخارى أيضاً عن أبى حازم بن دينار ، قال : إن رجلاً أتوا سهل بن سعد الساعدي وقد امتروا في المنبر : ممّ عوده ؟ فسأله عن ذلك ، فقال : والله إني لأعرف ممّ هو ؟ ، ولقد رأيتُه أول يوم وضع ، وأول يوم جلس عليه صلى الله عليه وسلم . أرسل عليه السلام إلى فلانة - امرأة من الأنصار قد

[١] في الفتح جزء أول باب الصلاة في السطوح والمنبر وفي جزء ثان باب الخطبة على المنبر .  
[٢] الغابة اسم موضع قرب المدينة وراء جبل أحد على بعد ثمانية أميال من جهة الشام وليس بها الآن شجر ولا زرع .

سماها سهل - : « مري غلامك النجار أن يعمل لى أعواداً أجلس عليهن إذا  
كلمت الناس » فأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها ، فأرسلت إلى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت هاهنا :

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يخطب إلى خشبة ، فلما كثر الناس قيل له : لو كفت جعلت منبراً ! قال :  
وكان بالمدينة نجار يقال له ميمون ، فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم أن يعمل له  
أعواداً يجلس عليها . . . الحديث .

وأخرج أبو داود عن نافع عن ابن عمر أن تمياً<sup>(١)</sup> الدارى قال لرسول  
الله صلى الله عليه وسلم - لما كثر لجه - : ألا تتخذ لك منبراً يحمل عظامك ؟  
قال : « بلى » ، فآخذوا له منبراً .

وروى ابن سعد - فى الطبقات - من حديث أبى هريرة أن النبى صلى  
الله عليه وسلم ، كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شق  
على ، فقال له تميم الدارى : ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ؟ فشاور  
النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذة .

قال الحافظ ابن حجر فى التعليق على ذلك : وقد علم مما تقدم سبب عمل

[١] تقدم أنه كان نصرانياً وأسلم .

المنبر ، وهو أنه : إما كثرة الناس ، وإما زيادة جسمه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ، فصار يشق عليه طول القيام ، فيخطب جالساً كما يستفاد من رواية أبي هريرة المتقدمة (١) .

\*\*\*

رأى سلمان الفارسي عمل ضروء حول المدينة في غزوة الأحزاب وأقره  
صلى الله عليه وسلم على ذلك

نقل الحافظ ابن حجر عن أصحاب المغازي قالوا : قال سلمان الفارسي للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، فأمر صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق حول المدينة ، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه قبل مجئ المشركين .

\*\*\*

صلى بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم العصر قبل غروب الشمس ،  
وبعضهم بعد الغروب فأقر صلى الله عليه وسلم الجميع يوم قريظة

روى البخاري عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر

[١] وكان عمل المنبر سنة ثمان من الهجرة ، وكان من ثلاث درجات .

في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي ! ،  
لم يرد منا ذلك . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف أحداً منهم .

وقال ابن إسحاق : لما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق  
راجعاً إلى المدينة أتاه جبريل الظهر فقال : إن الله يأمرك أن تسير إلى  
بنى قريظة ، فأمر بلالاً فأذن في الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين  
المصر إلا في بنى قريظة ... الخ » .

قال الحافظ ابن حجر : وحاصل ما وقع في القصة ، أن بعض الصحابة  
حملوا النهي على حقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنهي الثاني - الذي  
هنا - على النهي الأول ، وهو النهي عن تأخير الصلاة عن وقتها . والبعض  
الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة ، وقالوا : إنه كناية عن الحث والاستعجال  
والإسراع إلى بنى قريظة ، فبادروا إلى امتثال أمره الثاني . وخصوا وقت  
الصلاة من ذلك لما تقرر عندهم من تأكيد أمرها ، والمحافظة على أداؤها في  
وقتها ، فلا يمتنع أن ينزلوا فيصلوا ، ولا يكون في ذلك منافاة لما أمروا به .

وقال السهيلي : في هذا الحديث من الفقه : انه لا يعاب على من أخذ  
بظاهر حديث أو آية ، ولا على من استنبط من النهي معنى يخصه ، وأن  
كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب .

\*\*\*

رأى صلى الله عليه وسلم عدم الخروج إلى أُحد<sup>(١)</sup> ، ورأى أصحابه  
الخروج إليها فنزل على رؤسهم

جاء في البخارى ومسلم وأحمد والنسائى ما تلخصه ابن كثير فى التاريخ عن  
سبب غزوة أُحد بما يأتى : قال :

إن أبا سفيان لما وُتِر يوم بدر صار يؤلب القبائل على المسلمين حتى جاء فى  
شوال من السنة الثالثة الهجرية ونزل بعينين<sup>(٢)</sup> على شفير الوادى مقابل  
المدينة . فعلم به عليه السلام وأصحابه ، فتحمس للقائه شبان لم يشهدوا بدر ،  
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ليلة الجمعة رؤيا فلما أصبح قصها على  
أصحابه ، فقال : « رأيت البارحة فى منامى بقرأ تذبج ، ورأيت سيفى به فلول  
فكرهته ، وهما مصيبتان ، ورأيت أنى فى درع حصينة ، فأولت البقر التى  
تذبج نقرأ من أصحابى يقتلون ، والثلم الذى فى سيفى رجلا من أهل بيتى يقتل ،  
والدرع الحصينة المدينة ، فامكثوا فى داخل المدينة ، فإن دخل علينا القوم فى  
الأزقة قاتلناهم ، وارموا من فوق البيوت » ، فقال الذين لم يشهدوا بدرأ : كنا

[١] وكانت واقعة أُحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة .

[٢] فى القاموس : عينين بكسر العين ، جبل بأحد .

نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد سانه الله إلينا ، وقرب المسير فمتى نقاتلهم إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟ وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو . فلما صلى رسول الله عليه السلام الجمعة وعظ الناس وأمرهم بالجهاد ، ثم انصرف من صلاته إلى بيته ، ودعا بِلَأَمَّتِهِ<sup>(١)</sup> فلبسها ، ثم أذن في الناس بالخروج فلما رأى ذلك رجال من ذى الرأى قالوا : أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم بالله وما يريد ، ويأتيه الوحي من السماء ، فقالوا : يارسول الله ! امكث كما أمرتنا ، فقال : « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمة الحرب أن يضعها حتى يقاتل ، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأيتيم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو » .

وروى البخارى<sup>(٢)</sup> عن أبى موسى الأشعري عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيت فى المنام أبى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى<sup>(٣)</sup> إلى أنها اليمامة ،<sup>(٤)</sup> أو هجر<sup>(٥)</sup> وإذا هى المدينة يثرب ، ورأيت فيها بقرأ وخيراً

[١] اللأمة درع من حديد يلبس على الرأس .

[٢] فتح البارى جزء ١٢ ( كتاب التصير ، باب : إذا رأى بقرأ يذبح ) .

[٣] قال النووى : الوهل الوهم والاعتقاد . وقال الحافظ ابن حجر : وهل بفتحين أى ظن ، يقال : وهل يهل بالكسر وهلا بالسكون إذا ظن شيئاً فتبين خلافه .

[٤] أقلم بينه وبين البحرين عشرة أيام بالإبل قال ياقوت : اليمامة معدودة من نجد ، وقاعدتها هجر ، فيها ظهر مسيلة الكذاب .

[٥] هجر : بفتحين بلد من بلاد البحرين ومن مساكن عبد القيس . وقال ياقوت : هجر من بلاد اليمن وقال ابن حجر : وهذا أولى بالتردد بينها وبين اليمامة لأن اليمامة بين مكة واليمن .

فإذا هم المؤمنون يوم أُحُد ، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير .  
وهذا الحديث - الذي رواه البخارى - يدل على أن اجتهاده صلى الله  
عليه وسلم امتد حتى شمل تعبير الرؤيا ، وأنه ظهر على خلاف ما ظن .

\*\*\*

اجتهاد أصحابه صلى الله عليه وسلم بمحضرة في قتال أهل الطائف  
واقرارهم صلى الله عليه وسلم لهم

نقل صاحب زاد المعاد<sup>(١)</sup> عن ابن سعد قال : لما طال حصاره صلى الله  
عليه وسلم لأهل الطائف وهم محصنون بداخله ، لا يستطيع أحد اقتحامه  
عليهم ، استشار عليه السلام نوفل بن معاوية الديلى ، فقال : « ما ترى » ؟  
قال نوفل : ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ،  
فأمر صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج  
الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال عليه السلام :  
« فاغدوا على القتال » فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال صلى الله عليه

وسلم : « إنا قافلون غداً إن شاء الله » فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون  
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك<sup>(١)</sup> .

ومما جاء من هذا النوع ما رواه<sup>(٢)</sup> مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك :  
أن الرجل<sup>(٣)</sup> كان يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات<sup>(٤)</sup> من أرضه حتى  
فتحت عليه السلام قريظة والنضير ، فجعل بعد ذلك يرد عليه<sup>(٥)</sup> ما كان  
أعطاه ، قال أنس : وإن أهلي أمروني أن آتي النبي صلى الله عليه وسلم فأسأله  
ما كان أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله عليه السلام قد أعطاه أم أيمن<sup>(٦)</sup> .  
فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطينهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب  
في عنقها وقالت : والله لا نعطيكن وقد أعطينهن - أي رسول الله عليه  
السلام - فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أم أيمن ! اتركيه ولك كذا وكذا »  
وتقول : كلا ! والذي لا إله إلا هو ، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول :  
« لك كذا وكذا » حتى أعطاه عشرة أمثاله أو قريباً من عشرة أمثاله .

[١] ومن هذا يعلم أن الصحابة رضوا الله عنهم كانوا يعرفون أنه عليه السلام كان يجتهد  
فيقول الرأي من نفسه ، لاعن وحى فكانوا يناقشون ويتخبرون . وقد يظهر فيما بعد أنهم  
مخطئون أو مصيبون .

[٢] مسلم نسخة المتن الميرى جزء ٥ صفحة ١٦٢ في كتاب الجهاد والسير .

[٣] أي من أهل المدينة من الأنصار .

[٤] أي على سبيل العارية كما سيأتي ينتفع بثارها ويردها إذا استغنى عنها .

[٥] أي على الرجل من الأنصار .

[٦] أم أيمن كانت جارية لعبد الله بن عبد المطلب والده عليه السلام وكانت من الحبشة .  
ولما ولد صلى الله عليه وسلم كانت تحضنه .

وفي رواية أخرى لمسلم عن أنس أيضاً بلفظ : لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار<sup>(١)</sup> فقسّمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ، ويكفونهم العمل والثبوت ، وكانت أمي - أم أنس وتدعى أم سليم - أعطت رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاقا<sup>(٢)</sup> لها ، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولانته أم أسامة بن زيد . فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم ، فرد صلى الله عليه وسلم إلى أمي عذاقها ، وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه .

قال النووي في شرحه على مسلم : قال العلماء : لما قدم المهاجرون آثرهم الأنصار بمنائح<sup>(٣)</sup> من أشجارهم فمنهم من قبلها منيحة محضة<sup>(٤)</sup> ومنهم من قبلها بشرط أن يكون له نصف الثمار فقط ، نظير أن يعمل في خدمة الأرض والشجر ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة كراهة أن يكون كلا على غيره . فلما

[١] أراد بالعقار هنا النخل . قال الزجاج : العقار كل ماله أصل .

[٢] العذاق جمع عذق على وزن جبل وجبال ومعناه نخلات .

[٣] الذائح جمع منيحة على وزن ذبايح وذبيحة هي كل ما منحته أغيرك لينتفع بقلته ثم يرده إليك عند استغنائه عنه ، فمنحة الإبل والغنم ينتفع بلبنها ووبرها وصوفها ، ومنحة النخل ينتفع بثمرها .

[٤] أي ينتفع بكل ثمارها لنفسه .

فتحت عليهم خير استغنى المهاجرون بأنصباهم فيها عن تلك المنافع فردوها إلى الأنصار . وقد كان الأنصار أعطوا المهاجرين هذه الأشجار يتصرفون فيها كما يشاءون من أكل وإيثار للغير وصدقة دون البيع ، فلهذا آثر النبي عليه السلام أم أيمن . ولو كانت إباحته له خاصة لما أباحها لغيره . ولما كانت رقاب الأشجار لأصحابها صح إرجاعها لهم ، لأنها لو كانت هبة للرقاب لما جاز الرجوع فيها .

\*\*\*

أشار عليه صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنخاذ الخاتم فاتخذوه

روى البخارى <sup>(١)</sup> عن أنس بن مالك قال : لما أراد النبي عليه السلام أن يكتب إلى الروم قيل له : إنهم لا يقرءون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة فكانت في يده ونقش عليه : محمد رسول الله .

